kindle
مكتبة الحير الإلكتروني
@bookkn
@d110d

رواية

صبحي فحماوي

قاع البلد

قاع البلد

صبحي فحماوي

تم تحويل الكتاب الى الصيغة النصية بواسطة:

مكتبة الحبر الإلكتروني

أسعد الكناني

أيوب لم يصبر كما يتوهم الحكماء عن جبن،
ولكن السوافي أسلمته إلى السوافي،
في ظهره مليون سكين،
وفي رئتيه آبارمن السم الزعاف.

حيدر محمود

بعضهم يشرب للسكر ولكن،
بعضهم يشرب يا شيخ ليصحو.

عرار

الإهداء؛

إلى أولئك الذين توالت عليهم النكبات،

فتاهوا في الصحراء

مائة عام.

الليلة الأولى

هكذا فاجأني الهربيد بصوته المدوي، وبشكله المدهش ذي الطول الفارع، والشعر الطويل الغزير، المطعم سواده بشيب يتبدى ويتستر منسابا بين ثنايا جديلة مربوطة خلف رأسه، يتركها تدلى طويلا حتى منتصف ظهره، مثل جديلة امرأة لا تعتني بشعرها المربوط، فشفط مشاعري، مثل شفط مغناطيس قوي، لا يوترمشاعرالنائم وحدها، بل يستنفرالنائم كله، ليقف مثل مسمارممغنط..

ما زلت حتى هذه اللحظة صامتا، ولم أبح بقصة ذلك الرجل العجيب، الذي داهمني ليلتها على حين غرة.. ولكنني بعد تقاعدي، وجلوسي هكذا بلا شغل ولا مشغلة، أجد الوقت مناسبا لأبق البحصة، وأقر لك بالذي مضى، وبما كان يفجر

مكنونات صدري من عالم مدهش.. سوف أقول لك كل شيء ورزقي على الله.. سأعترف لك بكل ما أعرف عن عالم الهربيد، الذي هربد مخي في تلك الليالي العشر، التي كنت مضطرا فيها لجيرته في تلك الغرفة الفندقية الزنزانة، والتي كنت أصعد إليها بطريق سردابي شبه معتم، عبر درج إسمنتي محفر الجوانب والزوايا، فأكشف بثرثرته المتواصلة عن عذابات سريرته..

سأسرد لك الحكاية (من طقطق للسلام عليكم):

كنت مستغرقا في نومي في حوالي الساعة الحادية عشرة ليلا، من نهاية شهر آب عام 1968، في فندق الوادي، المصنف كأقل من نجمة واحدة، ليبتلع بداخله الغرباء ممن ليس له بيت يأويه، أو من ليس له أهل يرجع إليهم في تلك الليلة المعفرة بغبارالمهجرين، من البقية الباقية من فلسطين، والتي اكتمل في حزيران الماضي توحيد احتلالها تحت أقدام العدو..

صحوت مدهوشا بصهيل مرتفع لرجل يبدو ثلاثيني العمر، حاد النظرات الساخطة، بسوداويتها وتوهانها في فضاء الغرفة، وكأنها نظرات معترضة على كل شيء، وذلك منذ بدء الليلة الأولى من لقائنا القسري. ومنذ أن فتحت عيني لمشاهدة هذا الذي يلعلع، وكأنه مغرور باسمه، أو فخور به. كانت نبرات صوته تلعلع، وهو يطلق يديه الطويلتين في كل اتجاه، لتجسيد عباراته الجهورة:

قالوا لي: «لا تنم في غرفة الدكتور»! قلت لهم:

«وماذا يعني دكتور بالنسبة لي، الغرفة بسريرين، والدكتور يستأجرسريرا واحدا منها، وأنا أستأجرالسريرالآخر.. حتى لو أنني بائع ملابس بالة. ما لها تجارة البالة؟ إنها تجارة تجعلني أمتلك النقود، بدل أن أشحذها (من اللي يسوى واللي ما يسوا) هو يدفع نقودا وأنا أدفع مثلها!» قالوا لي:

«سندبرلك سريرا على السطوح في هذا الصيف اللاهب، أبرد وأرخص لك.» قلت لهم:

«أيام النوم على سطح الفندق راحت.. فأنا هذه الأيام أشتغل وأكسب، وأدفع لكم! صحيح يا عمي أن السطح أبرد وأشرح، ولكنني لن أعود للنوم هناك، فأنا من النوع الذي يسير أثناء النوم... لا يا عمي!»

الرجل يتحرك واقفا جالسا، ذاهبا، آيبا، في هذه الغرفة المترين في مترين، وهو يصيح:

«من قال إن النائم ميت؟ هذا غيرصحيح.. النائم شخص آخر.. تكوين آخر.. سلوك آخر، لا شك أن له علاقة بشخصه الصاحي نهارا، ولكنها علاقة ملابسنا التي نرتديها نظيفة منمقة، بتلك التي دعكناها في طشت الغسيل، وفركناها بشدة في الماء والصابون.. وهكذا الواحد منا، فهو يصفي أوساخ مشاكل يومه بالنوم.. يحللها، يذوبها، يزيلها، ثم يكوي هيئته وهو يصحو

بنفسية جديدة، مغسولا منظفا، خالي الوفاض من أعبائها..

هذا ما قرأته في كتب الفلسفة وعلم النفس في بيت لحم.. لو أنني وظفت عدد الكتب التي قرأتها ونوعيتها في الدراسات الجامعية، لحصلت بها على شهادة الدكتوراه.»

لم أدل بدلوي في هذه المشاعر الإنسانية، وفي تفسير الأحلام، الذي لست من هواته، بينما بقيت أحدق في هذا الرجل الخارق للعادة، وهويكسركل الرسميات معي، في دخوله المباشر هذا على غرفة نومي، وفي تدافع كلامه الفارغ، الذي لا معنى له، والذي ليس وقته على الأقل، إذ تحولت نبرة صوته المستنفرة، لتكون نبرة من يسرد حكايته المحزنة على صاحبه، لتوصيل ما يريد، ولهذا جلس على منتصف سريره الرفيع، متوجها نحوي وهو يتابع قوله:

«وأما عن نومي يا صاحبي، فأجدني أستغرق فيه، فأصير كما قلت لك شخصا آخر.. لا أعرف كيف أقوم في الليل البهيم، ولا كيف أسير وأنا نائم، وكأنني أسير في شارع الطلياني، فافعل أفعالا أعرفها، أو أفعل شيئا وأنا أسيرنائما، ثم أعود فأنام، و(كأنك يا أبو زيد ماغزيت.) ولكن حافة سور هذا الفندق يا رجل، لا تزيد على شبرين، فقد أسقط من فوق السطح، مثل شوال التبن.. .يقول هذا وهو يضحك ساخرا من نفسه.. و(لا أحد شاف، ولا أحد درى!)

كنت أنام على طراحة مفروشة على سطوح الفندق، قل إن النوم على طراحة أرضية هي عادة لدينا نحن البدو، ولكنني رقيت نفسي درجة، إذ زدت مدفوعاتي لهم من عشرة قروش في الليلة، إلى خمسة عشرقرشا، فانتقلت لأنام على الجهة الأخرى من سطوح الفندق، وعلى سرير زمبركي محترم، بين الأكابر، الذين عادة ما ينامون هناك.. صحيح أن له زمبركات رفاصة، صدئة، يصطك صريرها الحديدي في أذنك وأنت تقلب نائما، فيصحيك وأنت نائم في جورة يسمونها سرير، ولكنهم وللأمانة يضعون عليها طراحة يسمونها فرشة، وعادة ما يقدمون لك بطانية للغطاء، خاصة إذا طلبت، أو توقعوا أن يداهمك برد الليل.

ولكن السرير المحترم يا عمي حتى ولو كان على السطوح، فهو يحميني من الفئران المطاردة، والتي شاهدتها مرارا مندفعة بجرأة رهيبة أثناء الليل، أنت لا تعرف إلى أين هي منطلقة، وكأنها؛ بنات الحرام، تسابق في الهجوم الذي يغنيه الفنان فهد بلان:

«ما برجع من ديرتها،

إلا قاتل أو مقتول..

إلا قاتل أو مقتول»

قل إن الأفاعي لا تصل إلى تلك الارتفاعات، ولا إلى داخل

هذه العمارات المتراكمة فوق بعضها بمكعبات طوب لا يكاد يسندها، ولهذا فأنا لا أفكر فيها، ولكن الجراذين التي بعضها بعضا يطارد خلف بعضها، قد تقرض أي شيء يجابهها بأسنانها الفولاذية التي لا ترحم.. يا لطيف!

ولكل هذا صرت يا أبو الحبايب، والاحتياط واجب، أربط رجلي برجل حديد السرير، مثل ربطة الفجل، كي أصحو وأنتبه إذا ما قرر عقلي النائم أن يقيمني في عز دين الليل، ويدفعني للسير نائما. كانت أيام وصولي تائها إلى قاع المدينة هذا، أيام جوع وفقر يا دكتور، ولم يكن القرش يرن في جيبي، ولهذا كانت القروش التي أدفعها أجرة لسرير السطوح، كثيرة علي، رغم أنه كان متقعرا، مثل سريرالأرجوحة المعلق في شجرة!»

****

بدأت أصحو على هذربات هذا الرجل، وأعيد فرك عيني، لأراه بوضوح، ولأتفهم ما يقوله هذا المارد العريض الكتفين، الواقف بشكل مخروطي متناسق كالوتد، والذي يقوم عاليا بين السريرين ثم يقعد، ويثرثر كيفما يشاء، وقد وضع من بين يديه كيسين ورقين سميكين من نوعية ورق أكياس الإسمنت، مملوءين بالأغراض على المنضدة المشتركة، الموضوعة تحت الشباك، عند رأسي السريرين المتوازين، اللذين لا يبتعدان عن

بعضهما أكثرمن نصف متر.. وهو يتابع ثرثرته:

«وأما اليوم، وبعد أن تحسن شغلي في السوق يا دكتور، فلقد صرت قادرا على دفع عشرين قرش، أجرة سرير في غرفة مزدوجة داخل الفندق.. أولاد الكلـ.. .رفعوها هذا الشهر إلى ربع دينار! قم يا دكتور، قم لنأكل لنا لقمة هنية!»

كان صوته يهدر في غرفتنا التي استوعبت أنها صارت مشتركة لنا في الفندق.. فهمت أنه يدعوني إلى طعام العشاء، ولو أنه عشاء متأخرجدا.

رفعت رأسي عن المخدة الغليظة الصلبة، مثل أنبوب مجاري مغلف بغطاء أبيض، والتي ليست أريح تحت رأسي مما لو كنت أنام على ذراعي طوال الليل، وقلت له بصوت خافت متلعثم :«شكرا، شكرا، أنا نائم.»

«قم يا دكتور.»

«أرجوك دعني نائما، فأنا أتكاسل هذه الأيام، وأنام مبكرا، ولا أحب أن أصحو!» يبرز لي محتويات الكيس وهو يقول:

«هذا طعام نظيف.. لا تعتقد لأنك دكتور أن طعامي غير صحي! هذا رأس خاروف مطبوخ ومبهر، وشوية طحالات محشوة بالفلفل الحار والثوم والبقدونس، اشتريتهم من عند أولاد مشربش.. أنظف مطعم رؤوس وكرشات في شارع طلال!»

«شكرا، لا أستطيع أن آكل، فلقد تعشيت ونمت!»

«قلت لك قم، يعني قم!» قالها آمرا، ولكن بصوت رجل كريم يدعو بحرارة، فأجبته وأنا ما زلت متمددا في سريري، وملتفا بغطائي الخفيف، مثل دودة قزمغلفة بشرنقتها:

«أرجو قبول اعتذاري. كل.. صحة وعافية.» فصاح بي بصوت ازدادت حدته:

«أنت لا تعرف أن دعوتنا نحن العرب لا ترد.. » «ولكنني نائم.».. بدأ صوتي يصحو أيضا، ويعلو تدريجيا..

«والله إذا لم تقم، فسوف أرمي هذا الكيس بكل ما فيه أمامك على الأرض، وأدوس عليه وأفعصه وأفعصه، ثم أقذفه من الشباك!»

«ما هذا المجنون الذي يعمل من الحبة قبة؟» قلت لنفسي بصمت تحت غطائي:

«كيف آكل معه رؤوسا مطبوخة أو مشوية وطحالات محشوة فلفل حار وبهارات في منتصف الليل؟ وهذا النوع من الطعام لم آكله منذ عمْر! ولا أشتهيه أصلا، حتى لو كان من طبيخ أمي المحتجزة بعيدا عني خلف الحدود..

اللعنة على هذا الاحتلال الذي يوسع حدود عدوانه كل يوم، ليشمل مناطق مستهدفة جديدة، حتى أن بيتنا صارخلف حدود العدو، وفلسطين كلها صارت ببطن العدوالذي تضخم مثل أفعى ابتلعت أرنبا كبيرا، وسكنت لتهضمه على مهلها.. ولكن المصيبة

أن هؤلاء الغرباء لا يسكنون.. إنهم يحتلون أرضا لا ليسكنوها، وإنما ليطالبوا بالتي بعدها.. «كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم.» هذا ما يقرأونه في كتابهم.. لقد أغلقوا علينا جدار جيتو جديد.. ولهذا صارت زيارتي لأهلي القابعين تحت الاحتلال ممنوعة.

لم يكن يسمع حديثي الصامت.. بل قال بصوت منخفض، وبرقة ولطف هذه المرة:

«قم يا دكتور، قم وشاركني يا أخي، ولو بلقمة.. أنا أخوك الهربيد.. اسمي الهربيد عوض.. معروف في كل منطقة السيل.. كل تجارقاع البلد، من سوق الخضارإلى شارع الطلياني يعرفون الهربيد. أردت فقط أن أتعرف عليك، وأستأنس بالأكل معك. دعني أعتبره كرما منك أن آكل بمعيتك.»

يواصل ثرثرته وهو يبين لي تفاصيل محتويات كيسه الورقي المتين..

«أحضرت معي زجاجتين من عند اولاد مشربش؛ واحدة عصير تفاح، والثانية كونياك، إنما براندي يشفي العليل، على كيف كيفك!»

كونياك! براندي! هو لا يعرف أنني طالب جامعي أزهري، ولا أتعامل مع هذه المشروبات.. لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم..

بدأت أصحو وأجلس متثاقلا على سريري الزمبركي المفرد، والذي هو صورة مصغرة من قاع السيل المقعركجوف العير.

هل كان الشاعر الجميل، امرؤ القيس، يعرف أسرة هذا الفندق عندما قال:

وواد كجوف العيرقفرقطعته

به الذئب يعوي كالخليع المعيل.

ها أنا في واديك يا امرأ القيس.. وها هو الذئب الخليع المعيل.. أراه أمامي يقول بكل ثقة في النفس: «هذا براندي محترم.» ماذا يعني براندي يا أستاذ هربيد؟ أسأله.

«يعني، عامل نفسك لا تعرف البراندي؟ هذا يا دكتور صنف من مشروب الكونياك!»

«أنا لم أشرب في حياتي، لا كونياك، ولا مونياك. ثم، لا أنا دكتور ولا ما يدكترون. أنا مجرد طالب جامعي، سنة ثانية طب، في جامعة الأزهر، ولكن موظف الفندق سألني عن مهنتي، فقلت له: «طالب طب»، فسماني (دكتور) على الفور.. قلت؛ دكتور، دكتور! ولماذا أخجل من الدكترة، وهل هي عيب؟»

سرحت.. رحت أكلم نفسي بصمت، قائلا:

«هنا يعتبرون أن أهم لقب يسندونه لمتعلم هو لقب دكتور. كان لقب «معلم» أو «أستاذ» أيام زمان يهز البلد كلها، أو الحارة على الأقل، وأما اليوم، فلقد ذاب المعلم في بنطاله يا

حرام، فصارالناس يكبرون الكبيربين خيارين؛ إما «دكتور» إذا كان أحدهم جامعيا، أو «حاج» إذا كان كبيرا في السن، حتى ولو لم يحج! لا أفهم لماذا ينادونه بقولهم: «يا حاج»، ولا يقولون مثلا: «يا مزكي»، أو: «يا مصلي، أو «يا مجاهد».. .

قل إن موضوع الجهاد تم شطبه من الأركان الستة، فعملوها خمسة على مقاسهم.. ذلك لإنهم أسقطوا فريضة الجهاد عن المسلمين، وأعطونا دينا جديدا ذا أركان خمسة فقط.. تنزيلات هائلة.. ولم لا يكون هناك تنزيلات، حتى في أركان الإسلام.. قالوا لنا: «الجهاد ممنوع، يعني ممنوع.»

ولكن لماذا منعونا من الجهاد رغم أنه «ذروة سنام الإسلام» كما قال الرسول. ما دامت أراضينا محتلة، ونريد أن نسترجعها، أو نعود إليها على الأقل؟ أنا لا أفهم.

ولكنهم والحق يقال؛ أنهم قد أبرزوا الحج، وجعلوا منه الركن الأهم، مع أن الحج ليس فريضة على الجميع، بل لمن استطاع...» هل يتلاعبون بأركان الدين كما يريدون، فيأمرونك بالصلاة، ولا يتابعونك بشيء غير الصلاة.. مع أن الصلاة لم تأت في القرآن إلا مرتبطة بالزكاة «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة.. «ولكنهم يتابعون تصرفاتك بما يريدون.. لماذا الحض على الصلاة وحدها؟ أنت لا تفهم.

قمت وأمري إلى الله، وحتى لو أن لا نفس لي في الأكل،

لقد أيقظني هذا المارد الكثيف الشعر، والذي يشبه (طرزان) الحقيقي الذي كنا نحضرأفلامه على شاشات السينما.. أيقظني صوته الجهوري، وشكله المدهش..

وبسرعة فتح كيسه الورقي الذي يخرخش بصوت ورق أكياس الإسمنت، وهو يتناول الأشياء من داخله، وأخرج ما فيه من لحوم (السقطْ)، وقال لي:

«كل يا دكتور.. كل لا تستحي... مد يدك. لقد حسبت حسابك في الأكل.»

قاومت الانصياع إلى دعوته الإجبارية، ففعل المستحيل، فمددت يدي بتردد.

قطع لسان الخاروف المطبوخ هكذا بفركة إصبعين.. عندنا يقولون: (قطع لسانه من لغاليغه) وقدمه لي قائلا:

«اللسان يقدم عادة للشعراء، للكتاب، للدكاترة، تفضل، مد يدك يا دكتور.. لا تستح.»

لا أخفي عليك، بصراحة، مددت يدي وأكلت.. حتى لو كان(سقطا) فرائحة اللحم تفتح النفس.. الإنسان تستنفر مخالبه إذا شم رائحة الشواء.. هكذا منذ سيدنا آدم الذي اتخيله نباتيا بالخليقة، ولكنه كما تقول الأسطورة؛ عندما طغته حواء، وتجبرت بإغراءاتها له، اضطرلأكل (السقط) من أجل أن «يسقط عليها»، ف (سقط) من الجنة إلى الأرض، (ولا أحد سمى

عليه) يبدو أنه قد تورط في قضية ما مع حواء، فاستحق الطرد هو وإياها من الجنة، والعمل على الأرض بالأشغال الشاقة، وذلك لقوله تعالى:

«اهبطوا بعضكم عدو لبعض.». ولهذا كما أدعي أنا؛ العبد لله، السارد، زورا وبهتانا، سموها (سقط).

لا تتفلسف علي، لتبين لي الفرق بين اللحم والسقط. أنا أعرفه جيدا. ولكنها هكذا حبكت معي. لا داعي لطول السيرة.. لاشك أنني بدأت أستطعم الأكل.. هكذا صحوت..

بعد دقائق شعرت أنني أتورط في الأكل. رأس خاروف مطبوخ ومشوي مع فلفل وبهار والذي منه. فتحتْ نفسي من جديد.

وعندما شاهدني آكل بنهم، والأمور «دوزنت» معي آخر تمام، فتح زجاجة، ففاحت منها رائحة الخمر.. وأنا لم أشرب في حياتي أي مشروب من عائلة الخمر.. ليس لأنني طالب في جامعة الأزهر، ولكن تربيتي البيتية لم تضمن مشروبات أو غيرها من الممنوعات.. فنحن في الخليل «نسكر» بعصير العنب الطازج، والعنطبيخ، والخبيصة يا حبيبي، ولا تنس الملبن المطعم بحب قريش الصنوبر، والراووق، والبؤ سما، والدبس، والمبسبس، وفواكه لا أول لها ولا آخر.. »

انتبهت للرجل وهو يمد لي من طوله «كأسا»، فرفضت أن أمد يدي لتناولها، وقلت له:

«أنا لا أشرب الخمر.» ف(جعر) بصوت عال في هذا الوقت الغارق في منتصف الليل:
«والله إذا لم تشرب، لأكسرالكأسين على الأرض.»
وفورا أمسك المجنون بالكأسين الزجاجيتين اللتين كانتا معدتين للشرب، واستعد ليخبطهما ببعضهما بعضا..
الفضيحة يا رجل أنه يتصرف وكأنه يريد أن يفرج علينا خلق الله من نزلاء الفندق، وقد يصحي صراخه - في هذا الليل البهيم - جيران العمارات المقابلة..
في اليوم التالي فهمت من ابن صاحب الفندق الذي يقف عادة خلف طاولة الاستقبال الخشبية الموقوفة عالية بمساحة ربع متر عند مدخل الطابق الأرضي، لمراقبة الزبائن وتنفيذ الطلبات، أنه مشهور بفوراته في الفندق، بل وفي شارع الطلياني وتفرعاته، وقد يكون في «منطقة السيل» كلها.
فهو إذا لم يكن المشروب يلعلع في شرايينه، تجده يغضب ويصرخ في وجوه الآخرين.
ما هذه الورطة التي تداهمني؟
لا أعتقد أنها ورطة منضبطة ومأمونة.
«اشرب!» قال محفزا ! قلت في نفسي:
«هل هو يحاول أن يهيمن علي، أم إنه يضيفني، ويكرم علي بطريقته الخاصة؟»

«حاضرسأشرب!» قلت مستسلما..

سألني من أي بلد أنت؟ قلت له إنني من قضاء الخليل. مجرد عابر سبيل.. اضطررت للمبيت في هذا الفندق لحين وصول مصروفي الجامعي من والدي في فلسطين، حيث أنني أقف خلف الحدود، ممنوعا من دخول وطني، بعد احتلال فلسطين بكاملها..

دق الهربيد كأسه بكأسي، وقال:

«بصحتك.»

«بصحتي، بصحتي.. !»

شربت جرعة خفيفة. أف.. !ما هذا؟ حلقي ولع!

سعلت، سعلت، سعلت،

انتفخ صدري، ولعت أمعائي.

ملأ البخارالملتهب تجاويفي!

(ديزل)! (مازوت)! بلهجة الشوام! صدقني (سولار)!

صرت أبلع ريقي كل ثانية!

ولكن «المشروب مشروب، ما منه مهروب»!

لماذا لا أشرب؟

دع نفسك يا سامي الناظر تعيش الحدث..

سأشرب!

شربت جرعة ثانية.. بصراحة يا أخي، بدأت أتذوق طعما

قاسيا، مرطبا، منعشا، مدوخا.. صارت رائحة الكحول التي تنبعث منه تسري في شراييني.. خدرلذيذ..

شربت الجرعة الأخيرة، ونمت فورا، بدون شكر للمضيف..

في صباح اليوم التالي كان حلقي يحترق ملتهبا من جراء السولار الذي شربته ليلة أمس.

الحمد لله أننا نفترق في النهار، وكل منا يذهب في طريق.

الليلة الثانية!

في الليلة الثانية من معرفتي بالهربيد، وارتباطي بجيرته الغريبة، جاءني متأخرا كالعادة. طرح علي السلام بوجه مكفهر..

سألته أين كان حتى الآن، فنظر حوله بألم وهو تائه. لم يجبني، وكأن الحرقة تعتصر جسده. سألته عن سبب تكدره هذا، وهو شاب قوي يهد الحيطان..

«أراك تائها، وكأن على رأسك الطير.. ما قصتك يا رجل؟» جلس على السرير الزمبركي الرفيع الذي يتمدد مقعرا مثل نقالة موتى، مسجاة في غرفتنا الفندقية الموجزة المساحة، ولكنه هذه المرة سرح بفكره، وراح يتكلم بصوت عال، وكأنه يحلم من دون أن يراني، بينما أنا أنصت إليه بدون مقاطعة لحديثه الحزين الحالم الموغل في عمق عالم آخر، وهو يقول بصوت المهزوم:

«كانت الصحراء متوهجة بسرابها الفضي اللامع،
تنتشرعلى مساحة الكرة الأرضية كلها.
كل ما حولي رمال صحراء لا نهاية لها..
كنا في نهاية فصل الصيف اللاهب.
فيافي كالحة اللون، محدبة الحواف من جميع الجهات،
أبعادها ملتصقة بالسماء المغبرالمتماهي مع الأرض،
لا ترى لها نهاية..
صحراء تمدد وتنتشر من أقصى الدنيا إلى أقصى الآخرة!»
كان الهربيد منكس الرأس، متهدل اليدين، كغصن شجرة عملاقة شرخته الريح فذبلت أوراقه، نظر إلي بعنين حزينتين مقهورتين، ربما ليتأكد من إصغائي لحديثه، أو لمدى اهتمامي بهذا الحديث، وقد يكون لتقدير مدى تأثري ورد فعلي، ثم عاد إلى تيهه وهو يقول:
«بعضهم يسبح في البحر،
وبعضنا يسبح في الصحراء.
بعضهم يغرق في البحر،
وبعضنا يغرق في الصحراء.
قد تميزالألوان في محيط البحر،
ولكنك لا تميز الألوان الشاحبة المنتشرة في اتجاهات

الصحراء.
الرمال شاحبة اللون..
والسماء شاحبة الغبار..
والأغنام شاحبة المحيا..
والوجوه شاحبة من حرارة لهيب الصحراء.
وحتى الملابس شاحبة البياض
بفعل هبوب عفارالرمال
التي يحملها الهواء من المدى البعيد.
رحت أسيرمسافات طويلة فوق هذه الرمال الساخنة،
لا أرى حولي سوى ألوانا معدومة.
أبحث عن أبي الذي أفترض أنه يرعى الغنم في الامكان.
المكان هناك بلا مكان..
الأرض بلا معالم..
يبدو أن معالمها كانت مرسومة على الرمال بعصا الراعي،
وبأقدام الغنم،
ثم محيت بممحاة..
لا، لا، قد تكون رسمت بإصبع،
ثم محيت بكف اليد..
فلا بيتا هناك تشاهده،
ولا اتجاها يدلك على نفسه،

ولا ظل شجرة وارفة أستطيع أن أرتاح تحته
وأركن ظهري إلى جذعها،
ولا حتى مغارة كئيبة أستطيع أن آوي إليها،
منضما إلى الزواحف والوحوش!
المشكلة أن الأغنام شاحبة اللون،
تماهى مع سراب الصحراء،
فلا أميزها في هذه المتاهات الانهائية..
أسيرمتثاقلا مثل «المسيح الكنعاني»
الذي يحمل صليبه على كتفه،
وهو ينادي إلهه (إل) بلغته الكنعانية:
«إلي، إلي، لماذا شبقتني
إلي، إلي، لماذا تخليت عني؟»
أسير ذابلا أبحث عن أبي الذي سرح منذ يومين يرعى الغنم.»

****

يبدو أن الهربيد استأنس بي، فلم يخف أسراره عني، بل راح يحلم وهو يسرد لي قصته السوداوية المشاعر.

كنت أراه يتحدث وهو يتوجع، ومعالم وجهه تطوى وتشتد، وأصابع يديه تمخلب مثل أدوات عقرب، وعيناه توهان في البهوت المريع..

واصل كلامه المتقطع الحالم، بينما كنت أتقمص

شخصيته، فأشعر بعذاباته في ذاتي، وهو يتماهى مع الخوف، مع التعب، مع العطش، مع ضعف الرؤية في ذلك الجو المغبر، غير قادر على اختراق القلق.. تعميني الرمال المتحركة في الجو، لتكون جحافل رمادية تحجب الرؤية.

كنت أتفهمه؛ فحسب معلوماتي البسيطة؛

الحجْب ضرورة ملحة في الصحراء المكشوفة..

ومن الضروري أن نحجب أجسادنا عن الشمس التي تذيب محتوياتنا.

صرت أفلسف تصرفات الصحراء التي أجبرت ناسها على ارتداء الحجاب. قلت في نفسي:

«لقد احترقت الصحراء العارية بعريها،

فاخترعت الحجاب،

ليجعلها تبقى،

رغم جدبها، وجفاف قلبها.

والحاجب يفرض قوته على المحجوب.

والمحجبة تخضع بالضرورة لإرادة الحاجب.

وكون المحجوب محجوبا،

هو ضرورة قصوى للمحجب والحاجب معا.

والمحجوب أعظم. ومن الضروري حجب الحاجب الذي يبقى محجوبا،

وذلك ليتفرغ الحاجب المحجوب للتنعم بما يحجبه عنا.. وبينما أنا سارح في تفكيري بالحجاب والحاجب والمحجوب،

كان الهربيد يواصل مناجاته لأبيه حالما:

«أين أنت يا أبي؟

قالت لي أمي أنك خرجت منذ صباح أمس ترعى الغنم،

ولم تعد..

اللعنة تلاحقنا يا أبي،

حتى في هذه الصحراء المترامية الأطراف..

اللعنة تحاصرنا منذ أن تم خلعنا من بوادينا الخضراء،

يوم هجرنا من ربوعها الرطبة المغارات..

طردونا من تلك البلاد الخضراء..

قذفونا إلى القفارالشاحبة ..

إلى أين أرسلتني يا أمي؟

مضى علي يوم..

عمرٌ، دهرطويل،

وأنا تائه في الصحراء..

ضعت وأنا أبحث عنك يا أبي.. »

يضع يده اليمنى فوق عينيه، على شكل مظلة تحجب عنه نور الشمس المتخيل.. .

لا، لا، لم أضع.. ها هي آثارك تبدو للعيان..
في المدى البعيد أرى أغنامنا مبعثرة..
متباعدة مستنفرة،
تقف مذعورة بعيدا عن بقعة غامقة..
قد تتكون أحفورة ماء،
كثيرا ما شاهدت قيعانا هابطة وسط امتداد رمال الصحراء،
قد تتجمع فيها بقايا مياه..
نحن في شهرآب اللهاب.. شهرالسراب الكذاب..
أدرك أن الشمس تذيب تلافيف مخي وأنها تعتصرذهني،
تجعلني لا أدرك ما حولي بوضوح.
السراب المتماوج على البعد مثل انفراط عقد شعاع
كهربائي متذبذب يفترش الأرض بلمعانه القاتل..
هذا المشهد يشعرني بالخوف.. بالاكتئاب..
ها هي الأغنام مشدوهة بعيدا عن السراب الخادع.
تلك هي الأغنام.. أغنام أبي.. أغنامنا..
أخيرا وجدتها.. وجدتها..
تائهة منتشرة على مساحة واسعة تسف الرمال..
الرمال تسف الرمال «إن لم تجد ما تسف.».
ولكن أين هو أبي؟

الأغنام أمام ناظري حية تسعى..
تجمع.. تباعد. ترد البقعة السوداء.
تبتعد عنها.
ولكن أين أبي؟
أشاهد الرعية.. . ولا أشاهد الراعي..
أرى خلية نحل أصفرصحراوي لا تعطي عسلا.»

****

تأوهات الهربيد هذه، جعلتني أتخيل مغارات بلادنا في الخليل، المكتنزة بخلايا النحل الحراثي، المنتج للعسل الشهي. ولكن الأغراب داهموا المغارات، وقتلوا الخلايا. إنهم لا يعرفون من اللغة سوى مشتقات القتل، ولا يفعلون غيرذلك؛
قتل يقتل اقتل..
قاتل مقتول مقتل..
منقتل متقاتل قتيل
مقاتل قتال اقتل.. .هكذا تقول كتبهم:
«اقتلوا أطفالهم. اقتلوا نساءهم.اقتلوا حميرهم.
اخلعوا أفضل الشجرالمثمرفي حقولهم.»
العربي الجيد عندهم، هو العربي القتيل»
أفكربذلك، بينما الهربيد يواصل التوهان بخياله البعيد:
«يبدو أنها بقعة ماء صحراوية.

قاع من أحفورات الصحراء المائية..
ولكن أين هو أبي؟
هل هو ذلك الشيء الذي يقف في أحفورة الماء؟
ولكن ماذا يفعل هناك؟
إنه يقف إلى منتصف قامته!
هل يتبرد في هذه البركة اللزجة؟
أراه يذوب ويتضاءل كذبيحة معلقة في الصحراء،
يلتهمها الذباب!
لا يغطس ولا يقفز..
يبدو أنه يحاول الخروج إلى اليابسة..
يتل رجله اليمنى، فتغوص رجله اليسرى!
أبي! أبي ! أبي! ما هذا الذي أرى يا أبي؟
ماذا تفعل هنا يا أبي؟
يجيبني العجوز ببقايا صوت ذابل:
«يا روح أبوك! يا عمرأبوك! أخرجني من هذا اليم!»

****

تذكرني كلمة «اليم» بتلك الإلهة الكنعانية الأولى «يم». الإلهة الأم عند الكنعانين، التي جمعت الضباب الهيولي، فكثفته ليكون ماء، فجعلته بحارا متلاطمة تسود الدنيا.. وعندها استخدمت أولادها كثيران تجر عيدان حراثة، تحرث

الماء، فأخرجت منه اليابسة.. وهكذا خلقت الأرض اليابسة، وما عليها من حياة، حسب الأسطورة الكنعانية.. الآن فهمت تفسير قوله تعالى: «وجعلنا من الماء كل شيء حي».

ولكن هذا الأب الراعي المسكين، حرث رمل الصحراء، فغرق في الماء..

انتبهت إلى الهربيد وهو يواصل هذيانه بقوله:

«يصعد صوت أبي المستنجد ضعيفا ذابلا:

«طين النقع يمسك بساقي يا ولدي،

يشفطني من قاعي.

أنا أغرق، أغرق، أغرق!»

«كيف تغرق يا أبي في شبرماء؟»

«إنها قاع طينية لدنة عميقة يا ولدي.

أرجوك، ساعدني. انتشلني.

مد لي يدك يا ولدي.. اقترب من الحافة!»

أمد له يدي، فأكاد أغوص في رمال مائية!

الرمال الطينية غولة تنقض علينا

تنهشنا.. تأكلنا.. تفنينا وليس لها أمان..

أضع رجلي، فتغوص في مياه قيعانها لاصقة كالعجين..

«لا أستطيع يا والدي. ما هذه اللعنة!

أسحبها بقوة قبل أن تغوص الأخرى،

أجدها تمسك بتلابيب رجلي!

ها أنا أحاول أن أمد لك يدي لتمسك بها..

مد يدك لي يا أبي مرة أخرى!»

يمد أبي يده من جوف الماء المعكور بتخبطاته وبأرجل الأغنام التي لم تورط مثله.»

كنت أتابع الهربيد بمشاعري التي تفلسف الأمور، فأرى أن الأغنام تحذر أكثر من ابن آدم، الذي يشعره غروره أنه هو صاحب القرار، والأمر والنهي، والفعل والترك والذبح والسلخ، بينما لو وخزته شوكة، تجده يولول ويصرخ مستضعفا..

أشعر أن الهربيد يحلم بمأساته المذهلة أمامي صاحيا.. يا ساتر!

ورغم أن الحادثة -حسبما رواها المسكين- قد انتهت منذ سنة، إلا أنني تعاطفا معه، صرت أدعو الله أن يخرج أباه من اليم سليما معافى في نهاية المطاف.. أجدني أقول هذا لنفسي، بينما الهربيد يذوب بدموع شمعة تحترق، قائلا:

«يبدو أن غنمة وحيدة قد تورطت بالغوص في أعماق الماء، فدخل البركة ليخرجها، فغاصت رجلاه في الطين. ما يزال أبي يتخبط في اللزوجة.. يحاول أن يرفع رجله اليمنى، فتغوص اليسرى تحت ثقل الجسم كله.. يستعين بالأخرى فتنزل تحت الأولى.. يبدو أنها تهبط إلى قرار سحيق.. الطين الرملي المائي

يمسك برجلي العجوز مثل شفاطة! أقترب منه متورطا، فيقترب أبي نازلا إلى بئرأعمق.. أسحب رجلي إلى الخلف بقوة، لأنقذ روحي من الغرق.. أنظرمن حولي.. أبحث عن عصا لأمدها إليه، ليمسك بها، فأسحبه من العمق اللدن.. ولكن لا عصا حولي تستطيع أن توصل ما انقطع من الوصال.. هل من حبل أرميه إليه، فيمسك به، وهو الذي لم يبق ظاهرا من جسده سوى يديه؟ أكرر النظر من حولي، هنا وهناك.. لا أرى قضيبا طويلا، ولا سلكا، ولا حبلا أمده إليه، ليكون حية تسعى.. كل الأفاعي تسربت، وانسابت، لتختفي بين رمال الصحراء..

يا جماعة، يا عالم، إنه أبي وليس رجلا آخر،

أراه يغرق أمامي، وليس خلفي!

روحي تمطط من جسدي، لتصل إلى وسط البركة الطينية الرملية الرمادية الماء المعكور،

ولكنها لا تصل إلى روح أبي!

مجرد خطوات بيني وبينك يا أبي!

خطوتان من الحياة.. خطوتان من الموت!

يا عالم، يا هوه! هل من معين؟

يا عالم! يا هوه! أين أنتم؟ ألا يمرواحد من هنا؟

ألا ينبت رجل من وسط الصحراء،

ليسألنا عن ورطتنا، ويقدم لنا حبل نجاة؟

اللعنة..
لا يستجيب لندائي سوى السراب المخيف.
لو تقدمت برجلي الأخرى لغصت مثلك يا أبي.
أحاول أن أنقذك، ولكنك تنزلتنزلتنزل في اليم.
المصيبة أن رجليك المنهوبتين بالطين لا تستطيعان القفز إلى أعلى، لتعومان في هذا الماء الطيني اللزج!
أمد يدي بأقصى ما أستطيع.
إلى متى سأبقى بعيدا عن متناول يدك..
لماذا لا أغرق معك وننتهي؟
رقبتك غاصت في ماء الوحل..
لم تبق منك إلا يد تمتد نحوي..
أخاف لو تقدمت قليلا أن تبتلعني بحيرة الطين الرملي اللزجة المنتظرة تقدمي نحوها، مثل ليونة أفعى مهولة تفرش جسدها الطري في قاع البركة الرملية!
أمد يدي إليك.. .أبيأبي! أبي!
إنك تغطس تغطس تغطس،
لقد وصل الطين السائل إلى فمك..
لم يبق منك سوى الأنف الذي يتنفس..
ساعدني يا ربي على انتشال أبي من الموت!
إنه الموت يا ربي..

أرفع وجهي إلى السماء..
أبي يموت يا سماء أمام ناظري!
أحدق في عينيه الباقيتين متعلقتين بي،
مثل تحديقي في عين الشمس..
تحرقني عين الشمس فأصاب بالعمى..
أبي! أبي! أبي!»
يبكي الهربيد بدموع تنساب على وجهه، فيتمخط بصوت عال بمنديل قماشي يبدو أنه من معطيات البالة، وهو يتابع قوله:
«كانت تلك آخرصورة شاهدتها لأبي، فلم أعد أشاهد، أو أعي شيئا بعدها.
اختفى أبي أمام ناظري..
اختفت الدنيا من أمام عتمتي!
بقي ضوء شاحب يغطي كل ما حولي..
يغطي السموات والأرض!
لم أعد أصدق، ولا أحس بحقيقة ما أرى!
العالم من حولي ضبابي، ناري، إشعاعي، ملتهب،
والشمس حفارة كهربائية تدور بجنون فوق رأسي،
وأنا أسيرفي عتمة الصحراء..
أسيرفي كل الاتجاهات، ولا أعرف إلى أين أتجه..

كيف أعود إلى بيت الشعرالمنصوب لنا على باب الصحراء بدون أبي؟
كانت أمي تقول: (لا يجيبها إلا رجالها..)
لم أعد رجلا يا أمي لأجيبها..
لأجيب أبي وأغنامه.. صرت مخذولا.. طرطورا، نذلا حقيرا لا يلوي على شيء.
اختفت بوصلتي البدوية،
انتفت ذاتي التي كانت..
طاردتني الرياح، ولفتني داخل دوامة.
الدوامة تدور وتلف، تلف وتدور،
تجمع عليك غبارالصحراء كله،
تدور وتدور..
لا أفهم لماذا تدور بي الجنية، بنت الجنية!
أشاهدها ماردا جبارا لانهائي الطول،
يوصل الأرض بالسماء،
يدور بي فيقذفني من بلاد إلى بلاد..
فأسير وأسير بتوجيهها، دون توجه مني،
هكذا وجدت نفسي في واد مأهول في قاع هذه المدينة..
في هذه المدينة الكبيرة الواسعة ينغل الناس مثل النمل..
خاصة في أعوام التهجيرالفلسطيني القسري هذه!

خرجت من ذلك العالم الصحراوي.. أسير ثم أتعب.. أجلس ثم أتابع مسيري.. حتى وجدت نفسي أنام من طولي.

لا أعرف كيف وجدت بؤرة معتمة ارتميت فيها نائما..

فعلا، نمت في مغارة كانت تفغر فاها هناك على جانب السيل.. كان ينام فيها شيخ عجوز ليس معه أحد.. يلف نفسه ببطانية سوداء، مثل لفافة بضاعة مخزونة في مستودع مفتوح.. ويسند رأسه على ذراعه المطوي..

تستغرب أنني لم أستشره في النوم، كنت قد وصلت غافيا، وهو لم يعارض نومي، لأنه كان مثلي غافيا لا ينام..

تمدد الهربيد على سريره، ومن دون أن يكمل لي بقية القصة، وجدته قد نام بسرعة، فنمت على أثره منذهلا بما سمعت.

هل هو صادق في قوله،

أم إنه يحكي لي خرافات ما قبل النوم؟

لست أدري.

الليلة الثالثة

جلست في الليلة الثالثة منتظرا وصوله بفضول، لأطلب منه متابعة ما انقطع، وبمجرد وصوله، رحبت به وكأنني أنتظره منذ الصباح، وقبل أن يحدثني عن أي شيء، طلبت منه إكمال قصة وصوله إلى قاع المدينة.. فاعتذر عن كونه قد نام مبكرا في ليلة أمس، وتابع قصته قائلا:

"في اليوم الذي تلى تلك الليلة الميتة، رحت أسير في الشوارع.. أتجول في قاع هذه المدينة المضيافة الحنونة، التي لاتعرف أحدا، وكأنها بقلب قد من حجر، أراقب الناس الذاهبين والآيبين، حتى ينهكني المسير، فأجلس على أية دكة، أو أضع حالي المتهالكة على أي شيء يريحها.. على أي مكان يجعلني أشعر أن فيه سهوا لي.. الآن فهمت أن مفهوم السكن؛ هو في سكون

الجسد.. .في توقفه عن الحركة بعد تعب شديد.. وأن أسعد سكن يحققه الإنسان، يكون في نوم عميق، في مكان مجهز بكل وسائل الراحة." فقلت له بصفتي الأزهرية:

ولهذا جاءت الآية الكريمة: " ومنْ آياته أنْ خلق لكم منْ أنفسكمْ أزْواجا لتسْكنوا إليْها.. .» فإن قمة السعادة في الدنيا أن يكون لك بيت مجهز بكل وسائل الراحة التي تمناها، وامرأة صالحة تسكن إليها.» فقال:

«ولكن أين هو البيت المجهز، وأين هي الزوجة الصالحة؟».. وتابع سرده قائلا:

" ليلتها جلست على إحدى درجات مدخل سينما الحمراء، ورحت أتذكر أيام تخرجي من المدرسة الثانوية عام 1955، يوم طلبت من أبي أن يرسلني للدراسة في إحدى جامعات تركيا، أو مصر، فلم يوافق، بحجة أن رعاية الغنم هي مدرسة الحياة، وأننا نحن البدو لا نسعد ولا نحقق حريتنا في حياتنا، إلا برعاية الحلال. ولهذا تمردت عليه، وقدمت طلبا للعمل معلما في بيت لحم.. ولكن توظيفي الذي كان براتب بسيط، جاء في قرية بعيدة لا أعرف موقعها، ولم أتشجع للذهاب إليها من أصله..

وبينما أنا أسير مكتئبا في شوارع بيت لحم، مررت هناك على مصنع ألبان مكتوب على واجهته؛ "محل ألبان يافا"، بصفته ذا علاقة بأغنامنا ومشتقات ألبانها، وقابلت المعلم،

صاحب المصنع، الذي قال لي لاحقا أن اسمه أبوجعفرالحداد، وأنه كان قد أسه بعد هجرته من مدينة يافا إلى بيت لحم.

وبعد أن عرفته على دراستي ومهنتنا الرعوية، طلبت منه أن أعمل لديه، مقترحا أن أساعده في التعاون مع أصحاب مراعي أغنام البدوالمنتشرة من منطقة بيت لحم – بيت ساحور- زعترة- وحتى مضاربنا في "خربة مغارة النحل" غرب البحرالميت، فنبيعهم لوازم الأغنام من العلف والأدوية البيطرية، وأن نشتري منهم منتجات الأغنام من الحليب واللبن والجبن والزبدة والسمن وحتى صوف الأغنام، ووبرالماعزالذي يصنعون منه خيام البدو التي يبلى الزمان ولا تبلى..

يبدو أن شخصيتي أعجبت أبو جعفر الحداد، فتشجع الرجل بتشغيلي، وبالحديث معي باهتمام أكبر، وأن يترك ابنه جعفر يصاحبني في التجول في شوارع بيت لحم، والسهر في مقاهيها، أو دعوتي لمشاهدة فيلم سينمائي.. وهو الذي علمني قيادة السيارة، وبعد أن صرت سائقا ماهرا، صرت أجلب له مشتقات الألبان من مصادرها التي لا يستطيع الوصول إليها، ثم صار يعطيني سيارة النقل تبيت معي في خربتنا "مغارة النحل"، لأعود بها محملة ببراميل الحليب الطازج في الصباح..

وهكذا صرت أذهب بها إلى مرابع البدو وهي محملة بمستلزمات الأغنام، وبكل ما تطلبه مني نساء البداوة من

لوازم.. حناء، وكحل، وخلاخيل، ومرايا، وأحيانا ملابس.. ولا تردد إحدى النساء الثريات من البدوالتي تعجب بشبابي وبهيئتي المدنية، أن تطلب مني على انفراد وهي تبتسم خجولة أن أحضر لها ملابس داخلية من شلحة، وحمالة صدر، وأحيانا تغمض عينيها خجولة وهي تطلب مني طقم كلاسين ملونة، فتقول:

" هناك طقم يسمونه "كلاسين الأسبوع"، كل كلسون لون.. اشتريها على ذوقك.. أنا أقبل ذوقك.. وسلمني إياها سريا بيني وبينك."

وهكذا خلقت لي تجارتي المدعمة بنقود أبو جعفر الحداد إيرادا هائلا يزيد على خمسة أضعاف راتب معلم المدرسة.. إيرادات لم أكن أتوقعها، جعلتني أجرؤ على استئجار غرفة منفردة مع حمام ومطبخ على زاوية شارع برك السلطان سليمان القانوني في بيت لحم، لا يتدخل في تصرفاتي فيها أحد، مما يسمح لي بدعوة رومانسية لواحدة من النساء الجميلات اللواتي.. لزيارتي في غرفتي هذه، لشرب فنجاني قهوة مشتركين، نتسلى بشربهما على صفاء، حتى نصل إلى سكب ما يفور من قهوتي على أشيائها، فتعود من بيتي وقد بللها المطر.. وقد يستدعي الأمرمع غيرها فتح زجاجة جعة، ودعوتها للشرب معي، فإذا رفضت المشروب كي لا تعود لبيتها في حالة غير متوازنة، أو لأسباب الحلال والحرام، فأضحك في عبي وأنا أتساءل:

"أوليس اختلاؤك بي من أسباب الحلال والحرام؟"

صارت تلك الغرفة مكانا هادئا للقراءة، وعشا مغريا لممارسة الحب، الذي لا يتوقف عندي على فتاة أو امرأة واحدة، ومكانا للسكن والسكون الذي تحدثت عنه."

كان الهربيد يسرد ذكرياته الجميلة المحزنة، وهو ينظر بذبول إلى المدى البعيد..

" أيام حلوة عشتها في بيت لحم..

وبينما كنا نشتغل في صناعة "حلاوة الجبنة" التلحمية، كان أبو جعفر الحداد يحدثني محزونا على أيام يافا، وكثيرا ما حدثني عن سينما الحمراء اليافاوية.. كان يرفه عنا ونحن نعمل بحكاياته المشجعة، ويلهج باسم يافا في كل حديث.. أتذكره وهو يتحدث وينشج، بينما الدموع تسح من عينيه قائلا:

" بين بيتنا وبحر يافا قصص وحكايات.. كنا نذهب مع الشباب للسباحة وللتمتع ببحرنا.. بحريافا المفرود على الفضاء البعيد بصدره الرحب، نتراكض على شواطئه الرملية الناعمة، ونحن نشم روائح أزهارالبرتقال والليمون التي تهب علينا قادمة من مزارع يافا السعيدة، فننتشي بها.. ونفهم أن يافا البحر، هي يافا البرتقال." وأدهشني ذات يوم بقوله:

" تصور أن يافا صدرت -حسب الإحصائيات- في سنة 1948خمسة عشر مليون صندوق حمضيات بالبواخر إلى أوروبا. نعم خمسة عشر مليون صندوق.. كانت يافا عالما من

البرتقال، وسوقا عالمية تصلها صناديق الحمضيات من المناطق المحيطة بعربات تجرها البغال، وبأحمال على ظهور الجمال، وأخيرا صارت تأتي بسيارات شاحنة.. وأما عن جمال يافا؛ المدينة الحجرية، ذات البيوت المحمولة على أكتاف بعضها بعضا، فحدث ولا حرج.. "

كان أبو جعفر الحداد كلما تعمق في السرد، بكى وهو يحكي. خاصة عندما قال لي:

"وكانت سينما الحمراء جوهرة فنية تألق في شارع جمال باشا.. وكان محمد عبد الوهاب وأم كلثوم يحلمان بالوصول إلى عالم جديد في حياتهما الفنية، وذلك بالغناء فيها، ولكنها يوم داهمها الاحتلال، تفجرت وتطايرت شظايا، وتناثرت أشلاؤها، فتم تهجيرنا مع المهجرين إلى بيت لحم."

في مسائي العماني الثاني، جلست وحيدا، لا لأشاهد المارين من حولي، بل لأتخيل أن قطعة من تلك الشظايا طارت من سينما الحمراء اليافاوية فوقعت هنا، على هذا الرصيف، وبسرعة تعرفوا عليها، فالتقطوها، واحتضنوها وقبلوها، وبكوا عليها دموعا حارة، وقدسوها، وذلك بإنشاء "سينما الحمراء" هذه، مكان سقوط الشظية، وذلك تيمنا بحمراء يافا.

وهكذا أخذ المهجرون من يافا يتملكون دكانا هنا، فيسمونه "دكان يافا"، ومحل فلافل هناك، يسمونه؛ "فلافل

يافا"، و"مخبزيافا"، و"حلاق يافا".

صارت المدينة غاصة بحركة المهجرين، السابقين والتابعين "وتابع التابعين.. إلى يوم الدين".. كلها تبني وتهدم، وتجدد، وتقوض، و"تعمل من أجلكم، وتأسف لإزعاجكم"، ولكنها نسيت تشيد المراحيض.. مجرد نسوة... ولهذا تجد الناس داخل المدينة - نظرا لقلة وجود دورات مياه- يمرون عابسين وهم متضايقون بزحامهم، لا يجدون مكانا يتبولون فيه، فيختفون هنا وهناك، ليعملوها على حواف السيل.. وتجد بعضهم يتركها تماهى مع مياه الينابيع الرقراقة.. .

الجوع ذلال، والعطش قتال.. هذا ما قاله أبي.. ولكن لا عطش هنا في قاع البلد.. فقد أشرب من ينبوع رأس العين المتدفق هناك من بين أفخاذ جبال عمان السبعة، رغم ما قد يشوبه من ملوثات، فلا أموت، ولكن ذل الجوع يستشري في شراييني..

من شدة الجوع، لا أعرف إلى أية بسطة خبز خارجة من فرن مددت يدي، فتناولت رغيفا، لففته على الفور، على شكل درة راع قصيرة، التهمته جهارا نهارا، دون أن تفارق عيناي عيني صاحب الفرن. رحت أنهشه وأنا أحدق في عيني الخباز، وعلى استعداد لنهشه هو أيضا لو هاجمني لاسترداد الرغيف.. كان ذلك الرغيف يعني لي وأنا على شفا الموت؛ حب البقاء، وهو

الذي أنقذني من "غرق الجوع"، المختلف عن غرق أبي بالماء، إذ أن هذا الرغيف أحياني، ولكن ذلك الماء قتل أبي.

لا أنسى ذلك الموقف الواقف بين الحياة والموت..

كنا أنا وإياه نقف متقابلين على شفيرالهاوية..

كان شعور الخباز المحدق بي ممزوجا بالألم على خسارة ثمن الرغيف، وفي الوقت نفسه، بالشفقة على شاب طويل عريض جائع بقامتي، وبالخوف من أن تضيع بسطة الخبز كلها وتناثر في الشارع، لو تجرأ وتقدم لمهاجمتي، متوقعا شراسة دفاعي عن لقمة خبز حياتي .. لقمة عيشي، التي بدونها كنت سأفتقد العيش كله.. ولكنه لم يجر أية مشاجرة معي، وذلك حرصا على ضبط أرغفته وعدم تناثرها من دون مبيعات.

كنت متأكدا أن بؤس العملية لا يجعلها تصل إلى شرطة المدينة.. كان الرجل يحدق في وجهي ليشعرني أنه لم يتنازل عن حقه بها، ولكنه.. . تحت باب حقوق الصدقات.. وكأنني - وأنا ما زلت أمضغ- أتقاطع وإياه معا بتفكيرمشترك، فحْواه؛

"حقوق! أية حقوق هذه التي تفكر فيها؟ اذهب وطالب بحقوقك في فلسطين التي تم إجلاؤك منها تحت تهديد السلاح.. " مشاعروأحاسيس ليست مفهومة، وليست لها علاقة بالمنطق، وهي غيرقابلة للبحث..

في تلك الليلة سرت كثيرا، إذ لم يكن أمامي أي شيء

أعمله سوى السير ومشاهدة معالم المدينة التي احتوتني بدفئها الشرس.. سرت حتى وجدت نفسي أنام من طولي..

لم يكن أمامي سوى العودة إلى عمق المغارة المعتمة، التي تفتح فمها المخلع الأسنان، وتضطجع هناك على جانب السيل، مثل فم سمكة قرش عملاقة بحجم الحوت.

كان الشيخ الذي ليس له أهل، لا يزال نائما فيها.. لم أستشره بالنوم، لأني وصلت نائما.. لم يعارض الرجل نومي، ذلك لأنه كان مثلي نائما بدون استئذان من أحد.

في الصباح تحدثت مع العجوز الذي لا ينام فيها ولا يصحو، والذي يبدو من تقاطيع وجهه أن الدهر قد نخر جلده وحفره، وعمل فيه أخاديد ووديانا..

لم أسأله عن أهله، وعن عمله، ومصدر رزقه، ولماذا تركه أهله وبنوه ليرتمي هذه الرمية السوداء، ولكنه هو الذي تعاطف معي بقلب حنون، وعرفني على أن اسمه عارف أبو غليون، بعد أن سألني ألف سؤال، بصوته الذي يجرش مثل رغاء جمل، فعرف قصة تشردي، وتفهم سبب عدم وضوح الرؤيا أمام ناظري، فنصحني أن أعمل، بصفتي شابا أستطيع أن أهد الحيطان، كي أعيش، وأواصل الحياة، وكي لا أنزلق إلى السرقة التي أفهمته أنها ليست من طبعي، بصفتي متعلم، وتاجر سابق، وابن حلال، وصاحب أغنام، تبددت كلها بالاحتلال،

وابن خيراختفى بغرق أبي، وضياع أغنامه..
كانوا قد شردونا في العام الماضي من فلسطين، بقولهم إن الأعداء ينهبون المواشي، لإطعام جنودهم.. ويقتلون الرعاة حيث لا كاميرات تلفزيونية تصور، ولا قلبا يرحم، ولا سقف حماية وطنية يغطينا.. فاضطر أبي للهروب بنا وبأغنامه، من ربوعنا في خربة مغارة النحل، غرب البحرالميت إلى شرقه..
هكذا دفعة واحدة، اقترح علي العجوز عارف أبو غليون المتلفع ببطانيته أن أعمل عتالا في سوق الخضارالشعبي. (العمل مش عيب يا ولدي.. الشحادة أو السرقة هي العيب.) آلمتني كلمة السرقة.. سرقة الرغيف.. قلت لنفسي:
«عتال.. عتال.. ما دام العمل ليس عيبا.. » ذهبت مبكرا أبحث عن عمل عتالة.. إذ أنه حذرني من التأخر، وقال لي إن السوق يفتح منذ الفجر، وإذا لم تصله قبل طلوع الشمس، فلن تلحق أي عمل..
وقص علي قصة رجل قال لأولاده أن يصحوا قبل طلوع الشمس للبحث عن عمل، وأفهمهم أن الناس أجناس، فبعضهم يصحو قبل طلوع الشمس، فيطلب الرزق من الله، الذي يعطيه، فيرضيه، وأما من يأتون متأخرين بعد طلوع الشمس، طالبين الرزق، فإن الله يقول لهم:
«لقد وزعنا الأرزاق، ولم يبق منها شيء.. عودوا غدا قبل طلوع الشمس، فستجدون الرزق العميم.. «وهكذا يتعود

نشطاء الناس على العمل الجاد مبكرين، فلا يخيب الله أملهم.

وبالفعل يا حبيبي، صحاني العجوز بعد شقشقة الفجر، فقمت من مغارته إلى مغارة الدنيا الواسعة، وسرت في الشوارع التي كانت شبه خالية من الناس، إلى أن وصلت مع بزوغ الشمس إلى السوق، الذي بدأت توارده الناس والخضار، هناك بين شارع طلال وحافة السيل.. وما هي سوى ساعة زمن، حتى صاردبيب الناس يشبه دبيب النمل.. وقام تدافع عربات التجار وسياراتهم الناقلة، وعلا صراخ الباعة؛

«البندورة بخمس قروش.. .البطاطا بخمسة.. الخسة بقرشين.. اليوم البرتقال الشموطي- اليافاوي بسبعة قروش بس.. سبعة يا عالم.. سبعة يا برتقال يافا.. باعوك بسبعة يا يافا.. سبعة.. سبعة.. سبعهم اللي باعوك بسبعة يا يافا.. » سرت في طرقات السوق المتعرجة بضيقها وازدحامها.. أرتطم بين أكوام الخس والملوخية والباذنجان والخيار..

«لحم، لحم، يا لحم.. لحم العجل بثلاثين قرش الكيلو، أحسن لحم.. كبدة الخاروف بعشرين قرش.. المعلاق بثلاثين قرش.. كيلو لحم الخاروف بثلاثين.. أربع مقادم خرفان بعشرة قروش.. .»

كانوا يصيحون، وكنت بدوري أفكر؛ كيف سأعمل هنا.. شاهدت ولدا عتالا يدور بين الناس، في الممرات هنا وهناك،

وعلى ظهره سلة ضخمة مصنوعة من أضلاع القصيب، ورجل يسبقه، يشتري الخضار ويرميها في السلة.. لحقت به، سألته عن بلده، فقال إنه مهاجرمن قضاء اللد.. » وبينما كان الهربيد يواصل حديثه عن فرصة العمل، تذكرت أن كثيرا من الأجانب من شرق آسيا قد سمح لهم بدخول بلادنا للحياة فيها والعمل إذا شاءوا، رغم ازدحامها بالنازحين الفلسطينيين، الذين صاروا - بهذه الأعداد- يشكلون نسبة كبيرة من سكان الأردن الأصلين.. قل إن هؤلاء يعيشون ضمن مملكة متحدة من الفلسطينيين وشرق الأردنيين، تم عقدها في عام 1950..ولهذا أعود للأجانب الآسيوين، الذين لم تحتل أراضيهم، ولكنني كنت أشاهد بعضهم يسيرون ويستعطون عند حافلات الركاب، وأحدهم يقول لك:

(دو يو سبيك إنجلش؟) هل تكلم الإنجليزية؟ فتقول له: (يس) نعم. فيقول لك على الفور: «بليز جف مي فايف بياسترز.» أرجوك أن تعطيني خمسة قروش.. والخمسة قروش في أيام النازحين- هكذا كانوا يسموننا؛ «نازحين» - لم تكن مبلغا بسيطا.. ولكن ما لي، وما للأجانب الآن. يبدو أنني فقدت البث المباشرمع سرد الهربيد الذي عدت إليه لاحقا وهو يقول:

«وبناء على طلبي، دلني ذلك الفتى العتال الذي عرفت أن اسمه عبد الرحمن، على صاحب بسطة خضار وفواكه كبيرة،

الذي بعد حديثي المطول معه، وافق على تسليمي سلة عتالة كبيرة، مقابل تسلمه هويتي، لاحتجازها خوف أن أهرب بالسلة، وبناء على طلبه اتفقت معه أن أدعو الزبائن الذين يريدون الشراء إلى بسطته، بصفتها الأجود والأرخص..

وهكذا تم، فصرت «عتالا بدون رخصة».. وبكل جرأة رحت أعرض على هذا وذاك أن أحمل له بضاعته، مستعدا لإيصالها إلى بيته، خاصة وأن معظم الأغنياء الذين معهم القوة الشرائية كانوا من جبل عمان، وبعضهم كان من جبل اللويبدة، وقليل منهم من جبل الجوفة، الذي يعتبر أصل مدنية عمان، فكنت أحمل الأغراض والخضار وأصعد بها مع الرجل أو السيدة، فأوصلها إلى بيتها.. فتدفع لي خمسة قروش.. عشرة قروش.. خمسة عشر قرشا، فأفرح عائدا بها، وقد شعرت أنني أمنت حد الكفاف من معاشي.

قل إن طعامي أثناء العمل صار معظمه من سوق الخضار.. هذه ورقة خس أمرطها، وهذه حبة باذنجان أشلخها، وأمضغ لحمها بأسناني.. وأنا على فكرة أحب الباذنجان النيء، رغم أنه يصبغ الأسنان بلون رمادي، إذ كنت أذهب للدراسة في المدرسة الثانوية في قرية بيت ساحور القريبة من ربوعنا البدوية في زعترة، وكنت بعد الظهر وأيام العطلات أسير في الطرقات الجبلية البعيدة كي أنشط دمي وأراجع دروسي..

كانت هناك مزارع إلى جوار الطرقات، أو إن الطرقات تشقها إلى جزئين، فكنت أقطف لي باذنجانة من هنا، وأحيانا حبة بندورة من هناك.. أراقب المزارع المحيطة، فإذا لم أشاهد الناطور أو صاحب المزرعة، أجدني قد دلفت إلى المزرعة، وقطفت لي أربع خيارات.. مجرد ولدنة شباب طائش.. كنا نحن الطلاب نعتقد أن هذا التصرف ليس سرقة، وإنما هو حق لنا في مال الغير.. .خاصة ونحن لا نأخذ شيئا منه إلى بيوتنا. كنت بصراحة أرعى الخضاروأنا أقرأ، ولكن بطريقة تختلف عن رعي الأغنام لمزارعها بعد انتهاء صلاحيتها.. ولهذا كنت أحب القراءة، ليس تحت مفهوم القراءة للنجاح، بقدرما هو مفهوم:

«القراءة لتغير الجو، وأكل الخضار.» تستطيع أن تقول «سياحة قرائية» أو «قراءة سياحية»..قل بصراحة؛ «قراءة خضارية..»

وأحيانا كانت أغنامنا تنتشر إلى جوار المزارع، برعاية أبي.. فتجدها تغول في نهش الخضار، خاصة إذا خربت «المقثأة»، عندها يدب أبي حلاله في الزرع المنتهي موسمه .. كما يقولون: «غنم الدير في زرع الدير.. » نعم، لم نكن نعرف ما إذا كان أصحاب المزارع مسلمين أم من إخواننا المسيحين، والذين كانوا كرماء معنا بلا تميز في الدين، إذ أنهم لا يتقاضون نقودا من أحد مقابل رعي الحلال لبقايا مزارعهم.. إلا ذلك الناطور اللئيم أبو

سليمان، صاحب الشوارب الغليظة، والذي كان يمنع الرعاة من دخول المزارع، إلا إذا دفع أحدهم له أتاوة على ذلك. يقول إنها من حقه بصفته الحارس الأمين..

هكذا كنت أرى أمانة الأمين..

كانت أيام قلقة أوصلتنا إلى ما نحن فيه من تعاسة، لدرجة أنني أصبحت حمالا في سوق الخضار الرئيس كي أبقى وأعيش، ولو على شفيرالهاوية.

استمرعملي في هذه المحنة الأليمة أكثرمن شهر، اطلعت خلالها على بيوت المسعدين من الناس في جبل عمان وجبل اللويبدة.. بيوت حجرية جميلة بلا شك، مبنية على طراز بيوت بيت لحم. لم يكن أحد من مستخدميني يعرف أنني أتذوق الجمال، جمال البيوت.. جمال الحدائق العمانية الصغيرة، التي تختلف عن شوارع قاع البلد، وسوق السيل.. كلهم يعرفونني عتالا، «مثل الحماريحمل أسفارا» ينزل حمولته على باب الدار، أو يدخلها إلى المطبخ.. حسب طلب صاحب البيت أو صاحبته.. أجدني لا شيء يهم عندي، سوى أن آخذ القرشين وأمضي إلى حال سبيلي.

وذات مرة، نظرت إلي سيدة جميلة كانت تسير ببطء في السوق، تبدو في الثلاثينات من عمرها.. أطالت التمعن في وجهي وقامتي الرجولية، فتوقفت بسلتي أمامها، وكأنني فهمت أنها

تريدني للخدمة. وبالفعل أشارت إلي تطلبني لأحمل مشترياتها بسلتي التي تشبه خرج «جحش الرجادة».. لا أعرف ما هوجحش الرجادة، ولكنني أذكرأننا كنا نقرأ في المدرسة عن ذلك الجحش الذي كان يحمل الأحمال الثقيلة فنسميه «جحش الرجادة».

سرت خلفها في تلك الطرقات الضيقة المكتظة بالباعة والمتسوقين.. كان طفل يركض في الطريق الضيق المتعرج بشيء يبدو أنه قد سرقه من إحدى البسطات، وشاب يلحقه، سرعان ما أمسك به، فضربه ضربات قوية، والطفل يصيح متشبثة يده بالشيء، حتى سقطت من يده قطعة لحم لم أتميز كونها؛ قلب، أو كلية، أو طحال، فلم ينقذه من مخالب الشاب سوى رجل كبير السن.. يبدو أنه تفهم جوع الصبي، فنقده خمسة قروش. أخذها الولد ومشى مذلولا..

كنت أراقب الطفل بينما المرأة تنتقي وتشتري وترمي بضاعتها على ظهري، حتى طفح الكيل.. أشارت لي أن أمشي خلفها، فتبعتها ومضينا نقطع شارع الملك طلال، ونصعد الجبل.. وعلى الطريق كانت تسألني عن أصلي وفصلي ودراستي، فاستغربت أنني رجل متعلم ومتفتح.

كانت المرأة تسير أمامي صاعدة في شارع خرفان، بتنورة قصيرة تكشف عن فخذيها المربربين بتناسق ساحر فوق ربلتي ساقيها البضتين.. شعرت أنها تصرف بإثارة أنثى وهي تدوس

بقدمها اليمنى جهة اليسار، وتبعها بقدمها اليسرى جهة اليمين، وكأنها بهذه الطريقة تصنع تلعيب إليتها الفتية المتمايلة يمنة ويسرة.. ورغم أنني شاهدت أجسادا مثيرة للنساء، إلا أن هذه الزاوية الموصلة بين الفخذ والساق، المخططة بخطين متماوجين تحت كل فخذ، ما تزال تذيب مشاعري متعة وشغفا..

لا أعرف لماذا كنت أتجاهل الطريق وأنا أحدق بتضاريس جسدها الافت للنظر، فأتفرج على كتفيها الضيقتين، وخصرها المتوسط الامتلاء، وفلقتي تلك القبة الأنثوية التي أراها تلقلق أمامي، لتكون «مؤخر صداق» بورْكين أنثوين أتخيل الجيب المشقوق بينهما، وهما تبادلان ملاوعة ذكورتي التعيسة..

كانت تمشي أمامي على مهلها وهي توالي أسئلتها المثيرة عن علاقاتي الشخصية، ومع كل ذلك شعرت أنني أنهيت مشوار الطريق الطويل من صعود الجبل في لمح البصر..

ما لنا وللمشي، وصلنا إلى بوابة بيتها الذي كان يتربع جميلا في رأس التلة المشرفة على قاع البلد.. وبصوت أكثرأنوثة ونعومة مما سمعته منها من قبل، طلبت السيدة مني الدخول بسلتي إلى مطبخها، فدخلت كما أرادت.

أنزلت حمولتي التي لم تعبني رغم صعود الشارع الجبلي. وهناك طلبت مني إفراغ سلتي بهدوء، وترتيب خضارها في المطبخ لحين صناعتها كأسا من الشاي ضيافة لي.. ولكنني في الحقيقة

لم أطلب الشاي، بقدرما أنا متلهف لقبض القرشين والعودة إلى سوقي، كي ألحق بقية من المشترين، ولكنني تبسمت لها بالشكر، فاستدركتْ بقبولي وشكري قائلة:

«كأسين من الشاي لي ولك.».

قلت لها: «لا داعي لإزعاجك يا مدام.» فقالت:

«لقد أتعبتك بهذا المشوار الطويل.» ثم سألتني إذا كنت أحبه سكر زيادة، أم سكر خفيف.. شعرت أنني بحاجة للطاقة، فقلت لها: «سكرزيادة لو سمحت، مع كأس ماء.»

ما تزال الدنيا صباحا، فبسرعة استعدت طاقتي التي ما تزال مخزنة، رغم الطلوع الحاد بالحمولة الثقيلة، وتعزز وضعي بما لم أتوقعه، وذلك بكرم المرأة الزائد معي، إذ مدت يدها فطالت مقلاة معلقة على جدار المطبخ، ووضعتها على طباخ الغاز، وأسرعت بإشعال ناره تحتها، وفقس بيضتين في زيت المقلاة..

وبينما كنت أرتب أكياس الخضار، وأبعد الصلب منها عن الطري، كي لا يفعصه، أو لا يتكسر البيض، كنت أراقب تصرفها، وهي تضع المقلاة على طاولة الطعام الرخامية، مع رغيف خبز ساخن من الكيس الورقي الذي اشترته قبل دقائق من الفرن القابع على طريق الجبل، ثم وضعت إبريق الشاي.. ما هذا الذي يحصل؟ قلت في نفسي: هل هي دعوة إفطار؟

لم أتعود على ضيافة كهذه، في مهنة كهذه.. ولكن جوعي الشديد الذي صار بهذه الروائح يتلوى في أمعائي لم يرفض دعوتها..

وعندما شاهدتني آكل البيض بنهم، أحضرت صحنا فيه عدة شرائح جبنة بيضاء، وأتبعته بصحن باذنجان مكدوس.. وقطعت حبة بندورة كبيرة، وضعتها في صحن رابع، مع بعض الخضار الورقية الطازجة التي حملتها لها من السوق.. قلت لها باسما:

«صارت سفرة رسمية يا مدام.» فابتسمت تناغما مع ابتسامتي، وهي تقول:

«سلامة واجبك.. يا.. .».. فهمت أنها تسألني عن اسمي، فقلت لها: «هربيد «بينما أنا أقول لنفسي :

«أي واجب هذا، فأنا لست أكثرمن عتال يحمل بضاعة.» قربت السيدة كرسيها إلى جواري، وجلست ملصقة أياه بالكرسي الذي أجلس عليه، بينما هي تحدق في وجهي..

صارت مغناطيسية ذكورتي تهيأ لانجذاب نحو مغناطيسية أنوثتها، رغم أنني لم أفكر في وضع يشعرني بمزاج أرى أنه لايمكن أن ينضج بهذه السرعة، ولست أصلا مؤهلا له، حتى ولو صاركرسيها يحب كرسي..

في الحقيقة، وبصدق، لم أصل في تلك اللحظة إلى تهيؤ

ذلك الشاعرالجميل؛ المنخل اليشكري الذي قال:

وأحبها وتحبني ويحب ناقتها بعيري

شربت كأس الشاي باستمتاع وتلذذ، بينما كانت المرأة تستزيد الأسئلة وهي تنظرإلي بعينيها اللتين شعرت بهما شبقتين، عن أحوالي، وهل أنا متزوج أم أعزب.. قلت لها حقيقتي، فقالت معنى ذلك أن الحليب صارمتجبنا بين أضلاع ظهرك..

لم أضحك، خوفا من التورط بعالم الشرف، وما أدراك ما الشرف.. خاصة مع اللواتي يصفونهن ب»المحصنات الغافلات».. تذكرت أنها لحظة استئجارها لي كانت تفحص وجهي وجسمي بنظراتها الأنثوية التي قد لا تخيب ظنها..

صبت لي كأسا أخرى من الإبريق، ودعتني لشرب مزيد من الشاي وهي تمد يدها الرقيقة وتضعها على ظهري.. ثم تطاولت، فصارت تحس رقبتي..

كنت مستنفرا في البداية، ثم صرت أنشحن وأتوتر بهذا التدليك الذي بدأت أفهم ما تريد منه سيدتي، خاصة وأن لي خبرة سابقة ببعض الصبايا والنساء.

صحيح أن الحليب في ظهري قد صار مجففا، وليس متجبنا كما توقعت المرأة، ولكنني قلت لها إنني أريد أن أعود، كي لا يضيع علي يومي، فليست معي نقود إلا بما أعمل.. فقالت:

«لا تقلق، فسوف أجزل لك العطاء، أنا أردت فقط أن

أريحك وأستريح معك.» وراحت تشرح لي حالها، وتضيف أن زوجها يعمل في الخليج، وأنه يأتي كل صيف مرة، ثم يعود للعمل هناك.. تنهدت وهي تقول إنها لم تشاهده منذ سنة.. ثم ابتسمت وهي تقول لي إن لها طفلين في المدرسة.. وبسرعة غير متوقعة وجدتها تكسرالرسميات التي لا أجرؤ على كسرها، وذلك بعدما سألتني عن اسمي، ثم قالت وهي تشم رائحة عنقي:

«منذ متى لم تستحم يا هربيد؟»

تذكرت أنني لم أستحم منذ عمر مضى.. قلت لها أن ظروفي صعبة ولا يعلمها إلا الله.. لم أشأ أن أشرح لها صدري.. لذت بالصمت المخجل.. فقالت لي:

«أريدك أن تدخل الحمام فتستحم، تعال.. تعال.. هذا هو الحمام.. وهذا صابون وليفة.. » لم تقل لي: «ما رأيك أن تستحم»، بل قالت:

«أريدك أن تستحم وتغسل جسدك الذي ينضح العرق.»

قلت في نفسي:

«أمرالقوي على الضعيف.»

تذكرت أنني كنت قد نسيت مسألة الحمام منذ عمر مضى.. وأنني حرمت الماء على جسدي منذ أن غرق أبي بالماء.. ولكن هذه السيدة فتحت علي جروحا من الشهوة لا قدرة لي على مقاومتها.. قلت لها بكل صراحة وعلى المكشوف، ما دامت

هي التي بادرتني بهذا العطاء:

«إنني لا أملك ملابس داخلية أغيربها.» فقالت:

«هذه ملابس زوجي الداخلية.. لم يلبسها أحد.. تجده قد نسيها هنا.. ولا يتذكرها.. سأعطيك حاجتك منها.. فلا تقلق.. » لم أصدق نفسي وأنا أسمع هذا الحلم الغريب، ولكنني كنت بشوق عارم لاستحمام.. وفعلا دخلت الحمام يا تاج راسي، وفتحت الرشاش، وبدأت أغسل جسدي من عفونة أملاحه، وذلك قبل أن أدلكه بالليفة والصابون .. وما هي سوى دقائق من تفتح بادرة الحياة في متنفسي، حتى دخلت السيدة علي بكل بساطة وجرأة، وكأنها تعرفني منذ عمر، وهي تقول لي:

«ها أنا قد جئت لأفرك لك ظهرك.»

كان فرحها بمشاهدتي الذكورية على هذا الحال كأنها قد نجحت في إنزال آدم من الجنة لتقضي معه وطرها هنا، حيث أنه حسبما فهمت، لا مضاجعة هناك.. وإلا لماذا أنزل الله آدم من الجنة، عندما شاهد ما شاهده بعد عري آدم الفاضح؟

هكذا فهمت قصة آدم وحواء، التي قرأتها من كتب بيت لحم المخزنة في المكتبات والأديرة والكنائس.

لا أخفي عليك.. بصراحة ارتبكت وانقبضت بدخولها علي الذي لم أتوقعه، وأنا بهذا العري.. ولكن المياه الساخنة كانت قد أرخت ارتباكي، وجعلتني أستسلم لنفسها الأنثوي، الذي

بدأ يقترب مني، فيبدأ بإشعال أطرافي التي كانت منقبضة على نفسها، مكتئبة بكل ما حطم معنوياتي وبدد سعادة حياتي التي ابتدأت في ربوع بيت لحم وضواحيها..

كنت أخبئ أشيائي بيدي، وأكتمهما عن البوح، رغم التدفق المائي الذي يكاد يطفح في داخل السد، فيفكك جدرانه، بينما هي تمد يديها الرقيقتين وتفرك ظهري بالليفة، وتراقب تصرفاتي المقبوضة بانفعال شديد..

بعد انتهائها من التليف، ضربتني على مؤخرتي بعنف أنثوي، ثم أنشبت أظافرها لتقبض كل «خمسة وخميسة» فلقة منها، ثم خرجت قبل أن تعطيني الفرصة لاقتحامها، وعادت لترمي لي منشفة كبيرة بيضاء، يبدو أنها أعدتها لأجفف جسدي بها، وذهبت لتعود مرة ثالثة ومعها ملابس زوجها الداخلية، التي كانت صغيرة نسبيا على مقاسي، ولكنها كانت أكبر نعمة حصلت عليها بعد أن كانت ملابسي تلتصق بجسدي مثل التصاق الأرز المحروق في قاع طنجرة الطبيخ.. .

قالت لي في باب تحضير وليمتها:

«البسها، سأشتري لك ملابس واسعة على مقاسك، فلا تقلق.»

فهمت منها كل شيء.. فلقد صار اللعب على المكشوف..

انتهيت من لبس الفانلة والكلسون، ثم خرجت من

الحمام، وإذ بها قد عادت وهي تلبس قميص نوم زهري شفاف، وعليه روب أحمر ساتان رقيق، غير مغلق على قميصها، الذي يبرز مفاتنها الجهنمية.. .

شعرت أن السيدة كانت تواجهني بهجوم مسبق الإعداد والتحضير له بكل عناية وإتقان.. لا بل كانت تعاملني معاملة طفل يحتاج إلى رقة الأمومة، وإلى نعومة يديها الأنثويتين، ليرضع الرضعة، إذ أحضرت لي فرشة أسنان قالت إنها جديدة، ومعجون أسنان (كولينوس) مستعمل. وطلبت مني أن أفرك أسناني ولساني وحلقي، كي أرتاح وينشرح صدري.. .

عندما شاهدتني وقد خرجت مغلفا بأوراقي مثل صندوق موز مستورد، لم تمهلني السيدة التي لم أسألها عن اسمها، احتراما لها، كي لا أفضح سرها، بل شدتني إلى غرفة نومها، وإذ بي في جنة الجنات ..

«اللعنة. أين صرت يا هربيد!» كنت أوشوش نفسي:

«لقد كنت تنام في جحر فئران مع ذلك العجوز الطيب.. » تابع الهربيد اعترافاته المذهلة بقوله :«لا أريد سرد الحديث والفعل الذي حصل بيني وبينها، ذلك لأنني كنت أتقن معالجة جسد متحفز، مشحون الطاقة، يتثنى ويتطوى معي بمنتهى الليونة، مصقول من المرمر.. كانت امرأة برائحة الياسمين.. جسد بلون بتلات الورد الزهري.. كانت طرية بين يدي بطراوة

اللبان اليمني. ولكن شراسة شبقها كانت توظفها بأن تعضني وتدمي كتفي وذراعي بعضاتها المهيجة لكل مشاعري المشتهية لرائحة امرأة.. فأبادلها عضة شهوة بعضة نشوة. قالت لي وهي تهاجم جسدي وتستقوي عليه:

«فلتكن عضاتك لي في أماكن غير ظاهرة للعيان، كي لاتفضحني شهوتي لك بين الجيران والمعارف، رغم أني أشتهي بقاء آثارك التي تستنزف جسدي.»

بقيت يا حبيبي أضاجعها بلا توقف، من التاسعة صباحا حتى الواحدة ظهرا، وذلك بشهوة عارمة لا تذبل. عندها قالت إنها ستذهب لأخذ طفليها اللذين سيخرجان من المدرسة القريبة من هنا في الساعة الثانية فما ملكت إلا أن جمعت أوصالي، وهممت بالخروج، فإذا بها تنقدني عشرة دنانير..

.

ماذا؟! «عشرة دنانير؟!» فوجئت بالمبلغ.. «لا!» قلت لها: «أنا لا أتقاضى نقودا على علاقتي معك هذه! أو تظنينني أعشقك لنقودك يا سيدتي؟» فقالت:

«حاشى لله يا هربيد.. لقد أحببتك يا حبيبي. وبصراحة فهمت أنك مقطوع من شجرة.. هذه مساعدة مني، فيها رائحة الأم، الزوجة، الأخت، الخالة، العمة، الجارة، العشيقة التي أحبتك فرحت تسعدها وتفرج عنها كربها، وتنير عتمتها بما خلق الله الرجل والمرأة ليكونا متطابقين تطابق زوج حمام.. تطابق

جسد عار وستر حافظ.. » ضغطت بعشرتها لتبقيها مثبتة في يدي.. فاستبقيتها وعيناي في الأرض..

قبلتني في فمي بشدة وهي تودعني بدموعها المنهمرة، كانت تحدق في وجهي حزينة لفراقي، بدون أن تخرج من الباب، وهي تطلب مني أن أزورها كلما رأيت أن ذلك ممكنا في الفترة الصباحية، حيث يكون الطفلان في المدرسة، ونبهتني قائلة: «وحاذرأن تأتي في أيام العطلات.»

لا شك أنني دخلت بيتها في حال، وخرجت منه في حال آخر. لم يكن الهربيد الذي دخل حمالا خلفها، هو نفسه الهربيد الذي خرج من بيتها وقد تم تنظيفه وتدليكه وتفكيك أوصال جسده كلها.

كنت أنزل في جبل عمان بشعور استرخاء لذيذ، فأقرأ أسماء الشوارع، من شارع عمر بن الخطاب، إلى شارع خرفان، وهذا شارع عمرمطر، يفضي إلى شارع علي بن أبي طالب، باتجاه سوق الخضار المركزي، الذي رميت السلة فيه عند صاحبها، وعدت أدراجي لأرتمي في مغارة العجوز، ساهما مفكرا، ومراجعا لما حصل، مختلطا بين المتعة الجسدية والنقد المالي، الذي لم أتوقعه، وبين ذل قبضي نقودا من امرأة، بمناسبة ممارسة جنسية ليست في الحسبان..

ورغم أن الجوع هو القضية رقم واحد في أيامي الحالية،

إلا أنني شعرت بانتصارعلى الفقرمختلط بهزيمة مرة..

يفاجئني بسؤال:

«هل سبق وشعرت بانتصار مختلط بمرارة الهزيمة؟»

لم أجبه منتظرا تخيل بقية القصة، التي تابعها بقوله:

«هذا ما شعرت به بينما الدنانير العشرة مقيتة في جيبي.. رحت أتساءل فرحا بمذلة؛ كيف قبلت يداي على استبقائها، كالقابض على لؤلؤة ملتهبة، وأنا ابن الخير والحلال، الذي لم أكن أحسب للنقود حسابا وأنا أتنقل بين بيت لحم وبيوت شعر البدو، محضرا معي ما تطلبه نساء البدو من منتجات المدينة، ومشتريا منتجات البدو من الحليب والجميد، والجواعد والصوف وبسط السجاد الصوفي والتطاريز. كنت أحصل على دنانيركثيرة لا حصرلها من تلك المبيعات.

اليوم صارللقرش رنين في حياتي البائسة.. على أي أساس أخذتها وأنا الشاب الطويل العريض الذي يهد الحيطان.. ولكن كما قال أبي: «الجوع ذلال.. » هي اللعنة! اختفى وطننا، ثم اختفى أبي، فاختفت أمي، وبهذا كله، لم تبق لنا كرامة.

وعلى كل حال، صارالظرف مناسبا لشراء زجاجة براندي محترمة من محلات اولاد مشربش، وفرخة مشوية من هذه التي تلف وتدور على السفود، ورأس خاروف مشوي، وكيلوين من الفواكه والخضار، وبضعة أرغفة.. .عدت بها إلى مغارة العجوز

عارف أبو غليون، الذي شاهد الأطعمة الوفيرة التي جئت بها، فاستقبلني بابتهاج وفرح، وأنا أفتح له الكيس، وأريه محتوياته. وقال لي:

«ما هذه النعم التي أنعم الله عليك بها؟ هل سرقتها يا ولد؟»

طمأنته أنني لست من السارقين، بل هي نعمة من امرأة التقيت معها لقاء الغريب للغريب، لقاء جائع لجائعة.. لقاء متعطش لعطشانة، وشرحت له قصتي كلها وأنا أبتسم مسترخيا.

لم يبد العجوز تعليقا واضحا على تقريري المفاجئ هذا، يبدو كأنه يتذكر ماضيه بكل ما فيه من خطايا ومغامرات، كان يبتسم وكأنه يريد أن يشجعني على تصرفي هذا، قال لي بكلمات مقتضبة أنه قضى عمره صائما، وعندما أفطر، أفطر على بصلة.. وأضاف قائلا:

«إن الحياة فيلم قصير يا ولدي، ولا بد أن تكون فيه مشاهد غرامية.. » لم نكن أنا وإياه في سهرة جمالية، إذ بدافع الجوع، انقض كل منا على الطعام الشهي، فأكل كل منا نصف الدجاجة وشيئا من رأس الخاروف، مع رغيفين ورأس بصل وحبة بندورة، وشربنا ماء من الزير، قال العجوز إنه يحضره بعد منتصف الليل من «سبيل الحوريات» القريب من هنا، والذي يتبوأ قلبقلب عمان، وذلك للتأكد من نظافته.

وعند استرخائي للنوم مبكرا في تلك الليلة، رحت أستعيد هبوطي من الجبل وأنا أشعر بذلي الممتع، الذي تبدل من ذل الجوع، إلى ذل الشبع. كنت أتساءل:

هل يمكن أن تكون متعة الشبع مذلّة أيضا؟

هل يستمتع الإنسان بالأكل، ليطفئ ذل جوعه، ثم يتعود على متعة الأكل، فيقبل أن يملأ بطنه بالمال الحرام، فيشعربذل الشبع؟ أعتقد أنه لا يبقى عنده شعور بالذل بعد أن يتخدر بالشبع.

هل يوافق الإنسان على فعل المنكر، منتظرا قبض الجوائز، فيشعر بالذل؟

بعضهم يأكل الوطن نفسه، فيشعر، وقد لا يشعر بذل خيانته، وأما أنا فعلى العكس من ذلك؛ أشعر بخيانة الحياة لأبنائها.. نعم، لقد قتق علي هذا الشعور فكرة مفادها أن الحياة التي تركنا نقضي الوقت معلقين، تائهين بين الحياة والموت هي العاهرة.. الحياة هي الخائنة.

كنت أشعربمتعة الحب وأنا أضاجع غرفتي في بيت لحم، لم يكن أحد يهدد حريتي السعيدة وأنا أتجول هنا وهناك، شابا عاملا، تاجرا، عاشقا، مرحا، فرحا، قارئا، مفكرا في الدنيا ولكن ذل هذا الجنس الذي فعلته اليوم كان مرتبطا في مخيلتي بذل التجاء أمي للبدوي لتحلب له..

تصور أنني في الساعات التي قضيتها مع المدام، لم أسألها عن اسمها، خوفا على سمعتها الشريفة، بصفتها من «النساء المحرومات» في مجتمعها، وكي لا أرتبط معها بقصة حب وغرام لم تكن طيلة حياتي الماضية هدفا لي..

أصلا أنا لم أراودها عن نفسها.. وهي بدورها لم تراودني.. هي أمرتني، فأطعت الأمر، إذ خفت أنني لو رفضت أمرها، فقد ترقع لي بالصوت، وتهمني بمحاولة اغتصابها.. كان الهربيد يسرد لي كل هذا، وأنا أفكربقوله تعالى:

«إن كيْدكن عظيمٌ» وهو المتبوع في سورة أخرى بقوله تعالى: «إن كيْد الشيْطان كان ضعيفا.»

ما هذه المقارنة؟ يا لطيف!»

وليلتها قال لي:

«صحيح أنني كنت أتفجر رغبة بتلك الممارسة، لتفريغ نتانة مخي الملوث بكل تلك المشاعر المقتولة.. بكل تلك المشاعر المهزومة.. ولكنني شعرت وأنا أخرج من بيتها أنني قد انتقلت من هزائم متلاحقة إلى هزيمة كبرى..

شعرت أننا كلنا أولاد الخطيئة.. فأبي الذي انتقل بأغنامه من نيران الاحتلال ملتجئا من الرمضاء إلى النار كان خاطئا، وأمي التي بعد الخراب الثاني لبيتها، لحقت «بحب البقاء»، لتصنع الجبن واللبن، وتحلب «الحلال»، وربما تحلب الحرام هناك،

كانت خاطئة. وأنا الذي تهت بعد مشاهدتي غرق أبي ولم أتحمل مسؤولية الشتات، كنت خاطئا. وهذا الشعور بالخطايا المتلاحقة لن يغسله سوى العودة لاختراق حدود فلسطين، والبقاء فيها، حيا أو ميتا.»

لم أرد أن أقاطع الهربيد وهو يسرد لي هذه المفاجأة الغريبة، ويصف هذه المآسي الإنسانية التي لم تخطر لي على بال.. تركته يتحدث ويتحدث كما يشاء، كي لا أقطع حبل أفكاره التي يبدو أنها تهمني..

كنت أحاول أن أمتص كل كلمة يتفوه بها، وكل حركة يومئ بها، فأسجلها في ذاكرتي التي أريدها أن تكون في المستقبل مصدرا لكتابة رواية عما رأيت وسمعت وشعرت.

ولولا إصغائي للهربيد وحكاياته ومشاعره ومشاكله، لما استطعت كتابة هذه الرواية بعنوان؛

«قاع البلد»..

الليلة الرابعة

كنت أتوقع أن يتجاهل الهربيد كل ما قاله لي ليلة أمس في هذه الغرفة الفندقية التعيسة، وأن يتعود على صعود شوارع جبل عمان وهبوطها، ذهابا وإيابا، ولكنه قال لي هذه الليلة:

«كان ذلك اللقاء، هو الشرارة التي أشعلتني، فجعلتني أترك مهنة العتالة.. قلت لنفسي:

إذا كان جوعا، فليكن جوعا يعيد لي كرامتي.. يجب أن أجوع حتى أشعر بطعم حياتي المسخ..»

أنت تجوع إذن أنت تحفزلعمل شيء يخرجك من هذا اليم.».. «أنت تجوع إذن أنت موجود.».

كان يتحدث بهدوء على غيرعادته، وهو يقول:

«أنا لا أفهم كيف وصلت إلى هذا الدرك الأسفل من

الحياة، وأنا ابن ثقافة بيت لحم العريقة منذ عهد الكنعانين الممتد منذ الأزل، والذي عملت هناك عشر سنوات، ما بت ليلة فيها، إلا وقرأت بعض كتاب.. كنت شغوفا بالقراءة التي حرمت منها بعد شهادتي الثانوية.. كان جعفرالحداد المتخص بعالم الاهوت الكنسي يأخذني معه إلى مكتبة كنيسة المهد، التي كنت أستغرب انخفاض بابها الرئيس، بطول لا يتجاوز المتر، وهو مصمم هكذا كما قال لي، ليضطرك لانحناء للمسيح الرب وأنت تدخل بابه، فكان هو يأخذ كتب الاهوت، وأنا أنتقي كتب الفلسفة وعلم الاجتماع، وروايات جبرا ابراهيم جبرا، وجبران خليل جبران، وأشعار ابراهيم طوقان الذي درس في مدرسة المطران في القدس. وتأثرت بطريقتي الخاصة ببعض أفكار الفلاسفة الميتافيزيقين، مثل نيتشة وكير كيجارد، وألبير كامو وجان بول سارتر وغيرهم. كنت أتمنى أن تكون في مساجدنا مكتبات أدبية وعلمية وفلسفية منفتحة على علوم الآخرين وفنونهم..

كان من المفروض أن أكون معلما للناس؛ الأخلاق، والكرامة، والوطنية، والفكر، والحساب.. نعم الحساب.. يجب أن نحسب حساب كل شيء، فكل عمل مختلف نقوم به يؤدي بالضرورة إلى نتيجة مختلفة.

قلت للعجوز أبو غليون ونحن محشوين في المغارة أنني

لن أستمر في مهنة العتالة هذه.. لم يتضايق الرجل مني.. بل وبكل روية أب ذي صدر واسع، دلني على عمل آخر أقوم به، لحين ما أستقرعلى طريق حياة أريدها.. «إذ قال لي بكل هدوء:

«ما هي الحياة التي تريدها يا عمي؟» قلت له:

«لم يعد أمامي سوى الوطن.. موتي في الوطن أفضل من حياتي المدمرة هنا.»

لم يقصر الرجل في نصحي.. .لا أعرف هل كان ينصحني بهدف أن يتخلص من مشاركتي له مغارته، أو يتخلص من وجودي كي لا أطلع على مزيد من خصوصياته، إذ ذكرلي عندما سألته عن أولاده، وهل هو يعيش بلا أبناء، أو أقارب يلتجئ إليهم في أرذل العمر هذا، فقال لي أنه أخطأ في حياته خطأ لا يغتفر، إذ أنه بعد وفاة زوجته، سجل البيت الذي كان يملكه في جبل الجوفة باسم ابنه، فخسر الولد في لعب القمار، فباع البيت، ولم يبق هنا، بل هاجر هو وزوجته إلى أرض الله الواسعة.. أين هي الأرض الواسعة، لا أدري.. انقطعت أخباره، فلم أجد لي أرضا واسعة سوى هذه المغارة تأويني، إلى أن يقضي الله في شأني ما يريد.

ولهذا لم أشأ أن أتدخل في شؤونه، فأعذبه بشرحه تفاصيل مأساة حياته، وهو لا حول له ولا قوة، فلا يستطيع في هذا العمرأن يشتغل عتالا، ولا حتى قوادا في الشوارع الفرعية،

لو خنقته الحياة بلقمة عيشه – أستغفرالله العظيم- طبعا هو رجل وقور وطيب، وليس من عالم الرذيلة هذا، فكان يحتاج في حديثه معي لممارسة شعور الأب الذي ينصح ابنه أن لا يقع في الأخطاء التي وقع فيها، فيعيش هذه الحياة الصعبة المراس.

وبعكسي، كان يسألني عما يحصل معي فأجيبه بصراحة.. كان يتفهم موقفي، ولهذا نصحني بعمل آخر من أعمال قاع البلد.. قال لي:

«ليكن عملا مؤقتا إلى حين تضح أمامك الرؤيا، فأنت مكتوب لك أن تعيش يا عمي، وما دمت ستعيش وتعيش، شئت أم أبيت، فعليك أن تحاول توجيه حياتك نحو تحقيق السعادة الممكنة، الممزوجة بالكرامة، ما استطعت.»

أسند ذقنه بإبهام يده والشاهد، لبعض الوقت، ثم قال: «

ما رأيك أن تعمل في بيع ملابس البالة؟»

لم تكن هذه المهنة قد خطرت لي على بال.. قلت له:

«كيف؟».. سألته عن طريقة الدخول في هذه التجارة التي لست من أهلها، فدلني على تاجر بالة قال إن سمعته محترمة، واسمه الجبالي.. فإذا عملت عنده لبضعة أيام ولو مجانا، فإنك ستشرب الصنعة، وبعد أن يعرفك أمينا ومحترما، يمكنه أن يعطيك بالة بالدين، تبيعها في السوق القريب منه. فهمت منه كيف أتصرف..

سرت يومها في الشوارع المتفرعة من شارع الملك طلال، أراقب بائعي البالة.. حاولت التعرف على طريقتهم في البيع.. وهم كثر.. كان بعض الباعة يحملون ملابسهم المدلاة على أكتافهم، والمعروضة بين أيديهم، وهم يسيرون في الشارع، يصيحون بنغمات متلاحقة:

«أي قميص أصلي بعشرين قرش..

أحسن قميص إيطالي بعشرين!

عشرين قرش يا جماعة!

ياالله، القميص بعشرين يا عالم!»

وجدت أن صوت الهربيد قد ارتفع، وكأنه نسي نفسه، فراح يصرخ بأعلى صوته ويعوي وكأنه في السوق: بعشرين بعشرين أحلى قميص مستورد، يا بلاش!

فرح الأولاد بعشرين بس..

أحسن بلوزة لأحلى بنت بعشرين قرش..

فرح البنت بعشرين قرش!

أحسن جاكيت إيطالي بنص دينار..

نص دينار يا عالم..

نص دينار بس.. جكيت النص دينار إيطالي شرط،

نص دينار الجكيت، جكيت النص بْنص..

«كانوا هكذا يلعبون الأسعار، بلهجة أصحاب الكار.»

شخص يا معلم، شخص..

شخص يا أفندي، شخص ..

أحسن بدلة إيطالية محترمة بدينار.. .

اللي ماله بدلة، ما له تشخيص..

شخص يا مشخص.. شخص.. .»

أسواق البالة يا دكتور تشبه المجتمع الذي يحضنها، بفقره وغناه، بغوغائيته وهداوة باله، بحسرته على ماض اختفى وجوده، وتأقلمه مع الموجود. البالة ترفض اسمها، فهي ليست بالية على الإطلاق، وإنما هي حية نشطة، لا تعرف استكانة ولا راحة، عالم يهدر بكل محتوياته.. روادها بفوضاهم وذبولهم يشبهون الدود المتكاثر على ورق الشجر.. يستهلكون كل شيء..» يبدو أن الهربيد قد شرب كثيرا حتى جاءني تلك الليلة بسيطا ومتدفق الحديث.

كانت ما تزال بيده زجاجة مكتوب عليها (براندي) وهو يشرب منها شفة، ثم يمصمص شفته المرطبة بالمشروب..

أضحك بسري ساخرا من الزجاجة بقولي لنفسي:

«هو يلف غطاءها مغلقا كي لا تسْكر الزجاجة، فتقذف محتوياتها»! بينما يتابع قوله:

«ساق الله تلك الأيام.. يوم كنت أنتظر بالدقيقة ذلك الوقت الذي أعود فيه بسيارة المصنع التلحمية إلى ربوع بيتنا

والخيام المحيطة به في خربة مغارة النحل شرق قرية زعترة، انتظراللحظة التي تظهرفيها وظحاء- بنت جيراننا- لتملأ ران الماء من البئر، لغنم أبيها الواردة لتشرب ثم تنام في الصيرة، بعد نهار طويل من الرعي..

وإذا كنت موجودا بالصدفة في تلك الأوقات، كنت أقترب من البئر، بحجة أن أحجز دورا لأغنامنا، ولكنني في باطن الأمر كنت أنتظرها لأجد الفرصة في التقاء عيوننا أنا والجميلة وظحاء، عشقا ومحبة، فتذوب الحياة سمنا على عسل بين إشعاعاتها.

كنت أحب وظحاء التي تركت المدرسة في الصف التاسع، بينما حصلت أنا على شهادة الثانوية، كنا نسميها (مترك).. كنا نحن الاثنين خاسرين لدرب التعليم، مع أنني لم أسقط الكتاب من يدي طيلة السنوات التي تلت. «يتنهد بقوله:» آآآآه .. بقيت وظحاء هكذا تخدم الغنم مع أبيها وأمها.. وعندما صارت معي سيارة، صرت أمربها قريبا من بيت الجميلة، وألف وأدور بشكل استعراضي، للفت نظرها صبابة، حيث لم تكن لدينا فرصة الحديث المطول هناك.

وذات مرة التقيتها على البئر فرحت أغني لها أغنية جبلية بصوت الفنان فهد بلان، لأدهشها غراما بي..

كان الهربيد يقول هذا، وفجأة وقف، وراح يهدر بأغنية

الفنان فهد بلان، وبأعلى صوته الجبلي الساحر.. شعرت بالذعر
لما لم أتوقعه من صوت هو أيضا رخيم:
«لاركب حدك يا الموتور.. ركب الطيارة غية
شوف الضيعة من البنور.. وشاور لك يا البنية
لاطيروعلي.. وعلي فوق.. ترمح من حد الغيمات
واشوف فليح يرعى النوق... وظحا تسرح بالغنمات
طول عمرك يا طيار حوم لي فوق ها تلة
لاودع ولفي والجار ومن بعدا طيروعلي..»
لم ينته من غنائه حتى قعد على سريره يبكي بحرقة وهو يقول: «فعلا، كنت أشوف فليح يرعى النوق على شفا البحر الميت، ولكن وظحة لم تكن تسرح بالغنمات، بل كانت تقوم بالعمليات التخديمية في البيت وداخل صيرة الأغنام، متابعة لأبيها وأمها.. قد تكون تزوجت أحد الرعاة هذه الأيام، لا أعرف أين، فهي حلوة ولا شك، ولكن الزمان ابن كل.. .
لم أعرف مصيرها، ذلك لأن أغنامنا كانت في «حرب الأيام الستة»، وربما «الساعات الستة» تطاير مع رصاص رشاشات المحتلين.
ترى هل هم الذين أسموا مولودهم في تلك الحرب (رقم ستة)، وذلك لتسويق رقمهم اليهودي، بصفته الرقم الرابح، ويصبح رقمنا الكنعاني (سبعة) هو الرقم الخاسرأمام ستتهمْ؟

هل طفت ستهم فوق سبعتنا، فصاروا أسيادنا بهذا الرقم الذي راح يفرض نفسه في كل مكان؟
هكذا كانوا يقوسون على أغنامنا لإحداث بلبلة ورعب الموت بيننا.. وتحت رعب التقويس، تم إجلاؤنا من البلاد، من دون أن أودع وظحة، ولا أن أعرف أين شرد ربعها.. » يبدو أن المشروب قد أسال كل أحزان الهربيد.. ولكن البكاء أطفأ صوته الرخيم فانهارالرجل أمامي، فقلت له:
«كلنا في الهم غرب.. أرجوك يا عزيزي، اصمت، ودع نزلاء الفندق ينامون!»
قام الهربيد وغسل وجهه، ثم عاد يتصنع ابتسامة براءة، وهو يقول: «كانت معدتي زائفة من تأثير المشروب، ولكن ها قد زال الرغاء منها.»
قلت له: «نحن لا نريدك أن تضع أحزانا على أحزان.. لا تضع البنزين على النار.. اجلس وأكمل قصتك كي ننسى. » انتبهت الآن أننا لا نسرد لنتذكر، بل نسرد لننسى.. فبدل أن تبقى المواقف ومشاعرها المؤلمة مخبوءة في دواخلنا، مثل دمل محتقن في قلوبنا، نحن نسرد قصتها، كي ينز قيء الدمل، ونتخلص منه، فنشفى..
أنت تسرد الروايات، إذن أنت تخلص منها وتنساها، فتعيش بلا عذابات. تسرد الروايات لتعيش معافى من جديد،

وبصحة جيدة.. ولهذا انتشرت الروايات في هذا العصر، بسبب زيادة حمولات العذاب التي نريد أن نتخلص منها بالسرد.. ولم لا؟ ألم يخلص السرد الروائي، تلك الجميلة الرقيقة الواسعة الثقافة شهرزاد من جبروت شهريار القاتل المجرم وشروره؟

توقفت عن التفكير، وتابعت سماع سرد الهربيد بقوله: «بعد تلك الجولة البائسة في شوارع وسط البلد، وصلت إلى معرض الجبالي، الذي ذكره لي. سألت عن الرجل. دلوني عليه.

كان أبو نجيب الجبالي قصير القامة، سمين الجسم، شارباه لا يتجاوزان مساحة بصمة الاصبع الشاهد، مختبئين تحت فتحتي أنفه.. يجلس على كرسي قش ذي ظهرخشبي، تحت درج المعرض الذي يبدو أنه يصعد إلى السدة، وأمامه مكتب يتضاءل بحجم شبرين في شبرين. (ومن الباب للطاقة).. السلام عليكم.. وعليكم السلام.قال.

عرفته على نفسي، وقلت له أنني من خربة مغارة النحل، وأننا كنا ننتشربمواشينا شرقا حتى البحرالميت.. ولكننا لم نكن ندرك أننا سنشرب البحر، بملوحته القاتلة.. قاتل الله الظروف..

شرحت له موجزقصة عذاباتي، ثم عرضت عليه ما قاله لي العجوز أنني ملتجئ مؤقتا في مغارة أبو غليون، وهو الذي

دفعني لألتجئ إليك، لتساعدني على مواصلة الحياة.. طلبت منه أن يشغلني لديه مساعدا في البيع، وفي الخدمة في مستودع البالة، وحيثما يشاء.

باختصار لم يرفض التاجر طلبي، إذ يبدو أنه قد صعب عليه حالي. وبعد طول تأمل، قال:

«انتبه؛ العمل في المستودع يتطلب عتالة، و»شيل وحط».. قلت له أنني عملت شيالا في سوق الخضار.. قال:

«لماذا لم تستمرفي العمل هناك؟» قلت له: «إنني شاب متعلم، وخريج ثانوية، ولهذا فأنا مؤهل لعمل غيرعمل العتالة.»

نظر الرجل- من قصر قامته المدعبلة- إلى طولي وعرضي، وإلى هيبة جسدي، رغم ذبول أوصالي، وكأنه يقيسني (من تحت لفوق).

اختصرت في الحديث عن أصلي وفصلي وعن أبي الذي.. لم أستطع لشدة اعتصار آلام خاصرتي الاستمرار في إعادة مشهد غرق أبي، وعدم قدرتي على تصور شتات أغنامنا التي تبددت. ولكن الجبالي أراد أن ينسيني آلام الخراب الذي ألم بنا.

قد يكون البون الشاسع بين طولي وطول أبو نجيب هو الذي جعله يحس بهيبتي أو بحاجته لمساعدتي له في نقل بضائع من وإلى السدة، فيقبلني، وقد يكون علْمي الذي يحتاجه، وقد

يكون شكلي المختلف عن غيري، بطول شعري الطرزاني لدرجة قد يجعلني «حجر علام» في سوق البالة، يستزيد المشترين الباحثين عن الثقة في هذه البضاعة، بصفتها بضاعة ماركات مستوردة.»

وافق الجبالي على طلبي، واشترط علي أنه سيشغلني بعد أن أمر بمرحلة تجربة لديه.. قلت له إنني أقبل أي شرط منه، لقاء بدئي العمل.

ارتاحت أساريري لهذه الموافقة، إذ صرت عاملا في محلات أشهرتاجربالة في شارع الطلياني.. لم أنتظرليوم غد، بل باشرت العمل كما طلب مني..

ومن أول مساء عندما توقف البيع، طلب مني أن أرش الأرضية الطينية للعرائش بالماء وهي التي نعرض بضاعتنا تحتها نهارا.. قلت له:

«لماذا نرشها ونحن ذاهبون؟» فقال: «كي لا يختلي فيها ليلا من يريدون التبرز، حيث لا مراحيض يقضون فيها حاجتهم.»

فهمت، وأطعت. وهكذا عملت لديه أسبوعا، فأعطاني أجرتي خمسة دنانير.. اللعنة..

ضحكت على مهزلتي.. كان عطاء تلك المدام خلال ساعات أربع، ضعف عطاء أبو نجيب خلال أسبوع بحاله.. ولكن

شعوري المنتعش بخمسة أبو نجيب كان مختلفا عن شعوري بإحراج عشرة السيدة تلك، كيفما فسرتها تلك المرأة المغلوبة على أمرها، بل قل؛ نحن المغلوبين على أمرينا معا في ذلك اللقاء الحتمي الجميل.

في الأسبوع الثاني طلبت منه أن يزيدني ثلاثة دنانير، لأخفف ظلي عن العجوز الطيب عارف أبو غليون.. فأدفع أجرة فندق أنام فيه، ولو كان على السطوح.

لم يبخل الرجل علي. يبدو أنه كان يربح كثيرا من جراء مبيعاتي. ولهذا ازداد نشاطي وتفاني في العمل، وقد تبدد بعض آلامي النفسية، فازدادت مبيعاتي، فنقدني الكريم في الأسبوع الثالث عشرة دنانير، وقال: «هذا حدك.» قلت له كما قال العجوز لي:

«ما رأيك وقد عرفتني مخلصا، أن تعطيني بالة أبيعها على الرصيف، وأنقدك ثمنها عندما تسلمني البالة الثانية؟»

وافق الجبالي على طلبي، فصرت آخذ منه البالة بعشرة دنانير، فأبيعها في ثلاثة أيام.. أربعة أيام بالكثير.. يطلع لي منها ثلاثين، أربعين دينارا، أدفع منها خمسة دنانير للعجوز عارف أبو غليون، بصفته والدي الذي بقي حيا آنذاك، والذي كان رحمه الله، يصرعلى رفض قبولها، ولا يأخذها إلا وهو يبكي على حاله، ثم أقضي باقي الأسبوع صائعا ضائعا في الطرقات والمقاهي

والبارات، أدعو صاحبي هذا على كأس براندي، ويدعوني ذاك على كأس عرق.. وساعات نشتري لنا زجاجة عرق محترمة، خاصة إذا كانت أرباحي ممتازة، فأضربها صرماية، وأشتري «عرق أبو سعدة».. أحسن عرق لبناني في السوق.. ولا أعود للعمل إلا بعد أن أتمصرف بأرباحها، وبعد أن أصبح على الحديدة، وليس معي سوى الدنانير العشرة، التي سأسددها للعم أبو نجيب، فآخذ منه بالة جديدة، وأبدأ اللعب من جديد.. » وكثيرا ما ننزوي أنا وأصحابي الذين أختارهم من المهتمين بالحكايات والمرح معا كي نخفف عن بلاوينا الزرقاء، نجلس معا في جحر صعلوكي، نشرب على جنب.. وخلال الجلسة نضحك كثيرا ونحن نتحدث عن حال الدنيا، في الشغل.. في البالات.. في النساء.. في الوضع الوطني المتفاقم في الشارع.. في الاحتلال الغاشم.. فيقول أحد الأصحاب:

«الاحتلال دمرحياتنا الاجتماعية.» ويقول آخر:

«ولكن «لكل فعل رد فعل». هناك نشاطات متصادمة. مواجهات ناجحة ضد العدومن جهة، ومن جهة أخرى تصادمات مؤسفة بين الفصائل.» فأقول لهم:

«لاحظوا الخطابات الجماهيرية الهادرة التي تغص بها شوارع قاع البلد.. هذه الجماهير لا يمكن أن تهتف ببوصلة خاطئة.. هذه الأغاني الجياشة لا يمكن أن تهزم.. هناك غليان

تقوده تنظيمات قديمة ذات جذور قوية، وهناك إرهاصات لخلق تنظيمات جديدة، تنادي بتحقيق العودة. لاحظوا أنه بعد انتصاراتنا في معركة الكرامة، صار الوضع واعدا.» فيرد علي صاحبي بقوله:

«ولكن انفلات بعض التنظيمات التي نراها في الشارع، وتصادمها أحيانا، يثبط فعاليتها، ويجعلها تستقوي باستقطاب أعداد فوق طاقتها التنظيمية والانضباطية من الشباب المتعطش للعودة والتحرير، وقد يندس بعضهم لتخريب التنظيم، بدل دفعه إلى الأمام.» ويقول آخر:

«صارت بعض الأحزاب العربية تعلن عن وجودها من خلال تنظيمات جديدة تفرضها على الساحة، حتى يكون لها عيون في المنطقة، من جهة، ومن جهة أخرى، قد يريد بعضهم أن يكون له وجود فعلي على حدود فلسطين، ليمارس النضال فعلا، ولكن بطريقته الخاصة، والتي قد لا تكون الأسلوب الأمثل في المقاومة.»

«وقد يكون للصهيونية إصبع في دس أحد التنظيمات، وذلك بجعله يلبس الملابس الفدائية، ولكنه يخفي وسائله التخريبية، لبث الفتنة بين الجيش العربي والعمل الفدائي، مثل فعل السوس الذي ينخرسيقان الأشجارالقوية الباسقة..

» «وقد يحوي مثل ذلك التنظيم عناصر غير منضبطة، تزاود على النضال، بمحاولة الفجور في تصرفات اجتماعية تسيء إلى سمعة العمل الفدائي.. «فتدخل زميل آخرلي في البالة بقوله:

«تصوروا أن امرأة من زبائن البالة قالت لي أنها أرملة تؤجر بيتا تعتاش منه.. سكنه فدائي، فلم يدفع أجوره التي تراكمت عليه ستة أشهر. وقالت إنه استقوى عليها بكونه فدائيا مسلحا. فقلت لها: «اشتكيه إلى قيادة التنظيم.» فقالت إنها اشتكته للقيادة، فتملص مديرالمكتب بقوله لها:

«هذا الشخص مجرم وسفاح، ونحن نخاف منه، ولا نستطيع ضبطه.. يا خالتي؛ (لا تشكي لي، لأبكي لك!) خليني بصراحة أحكي لك أنه وصلتنا عنه شكاوى كثيرة.. تصوري أن امرأة اشتكت له على زوجها، وقالت إنها لا تريده زوجا لها، فأخذه هذا الفدائي وضربه ضربا شديدا، وطلب منه تحت تهديد السلاح أن يطلق امرأته حسب رغبتها، فطلقها الرجل المغلوب على أمره.. ولهذا خذي حذرك منه.. » تأخذ حذرها منه! كيف تأخذ حذرها ومدير مكتب التنظيم يعلن خوفه منه؟ أليس للبيت رب يحميه؟ أليس لهذا التنظيم الذي يحوي بداخله عناصر فاسدة، قدْرة على لجم عناصره، أو فصلهم من

التنظيم، كي لا يحملوا شعاره؟»

فقلت بدوري:

«ولكن هذا الفاسد ليس مثالا يحتذى.. أو إنه لا يمثل التنظيمات الفدائية. فمعظم الفدائين منضبطين، وكل يوم يتم تنظيم أكثرمن مائة فدائي في الأردن وحدها، تجدهم ينزلون متكاتفين بسياراتهم الثورية إلى الأغوار لقتال العدو.. أليست هذه إيجابيات للثورة .»

«نحن لا نتحدث عن الإيجابيات يا عزيزي.. أصلا الإيجابيات هي المبرر الوحيد لبقائهم، ولكن لو أن القيادة تحاسب هذا الذي انحرف سلوكه في فصيل الثورة، لما نشأت المحسوبيات، ولما وجد النهب والسلب من تبرعات الفلسطينيين والعرب الداعمين للقضية، والذين سيتقلص تبرعهم، وقد يتبدد إيمانهم بمثل هذه التنظيمات المخترقة.»

وهكذا نقضي السهرات يا دكتور ونحن نشرب ونتناقش بأفكار ووجهات نظر مختلفة.. تجد أحدهم لينيني التوجه، يتصارخ مع آخر تروتسكي، يقولون إنه منحرف عن الماركسية اللينينية، وغيره ناصري يهاجم الشيوعين والإخوان المسلمين، والآخر بعثي عراقي، على خلاف حاد مع البعثي السوري.. أو من جماعة غير معروفة المصدر يتناقش مع آخر، ليس من جماعة

أحد..

وبدل أن تجمع هذه الفصائل في جبهة واحدة، تجد كل فصيل منها يدخل ليمثل حاكم دولته، أو الجهة التي يقبض منها، سواء كانت إيجابية أو سلبية، لينفذ أجندتها في الساحة الأردنية..

وأما ثامر أحد معارفي الشوارعين من الزبائن كثيري التردد على بالتنا، والذي عادة ما يخزينا في حديثه، فلقد أخرجنا عن جديتنا في المناقشة بقوله وهو يقهقه ساخرا:

«أنا لست مهتما بالأوضاع السياسية، ولا بالأوضاع الاجتماعية. أنا لا أفهم من الأوضاع، غير الأوضاع الجنسية، التي يجب أن يكون عليها الوضع.. أنا من جماعة الفنان فلمون وهبي. وراح يقلد صوت فلمون وهبي الضخم بأغنيته المعروفة بعنوان (بسيطة):

«جحي قال .. هالموال:

خربت عمرت. نزلت طلعت..

حايد عن ظهري .. .بسيطة.»

فضحكنا على هذه الأغنية التي لا شك أنني أحب سماعها بصوت الفنان العظيم فلمون وهبي، ولكنني أسمعها كتراث شعبي يسخرفيه فلمون من غيرالمنتمين إلى أوطانهم.. بينما تابع

صاحبنا السخيف قوله:

«أجد متعة كبيرة في التجول في محال الملابس المستعملة، وأقضي ساعات وأنا افتش عما يرضيني، حتى أجد ضالتي. ولهذا صرت زبونا رسميا عند صديقي الهربيد، الذي صار يدلني على مخابئ ليس من السهل الوصول إليها في التقاط بدلة أو بنطلون أو قميص نادر، وسعره معقول. وأضاف متباهيا:

«التجول في سوق ›‹البالة‹‹ لم يعد يحرجني، خصوصا وأنا أرى أشخاصا لهم وزنهم ومكانتهم، يدخلون إلى هذه المحال ويشترون ملابسهم منها.»

وقال سامر الأعور وهو تاجر قصير منفوخ الكرش مثل برميل فسيخ إنجليزي، يشتري بالة واحدة مثلي، ولكنه تافه وأناني:

«الحمد لله على الحركة.. أي لولا وجود هذه النكسة، وأمواج هؤلاء الفدائين الذين تحدثون عنهم، فلن نحقق أية أرباح، ولن تكون أمامنا هذه القوة الشرائية، ولن يكون تدافع بني آدم هكذا، لنبيع هذا البيع كله، ونكسب بهذه السهولة.. صارمع الواحد نقود يا جماعة يصرفها كما يشاء.. أمس التقيت أحد القوادين، كان قليل الحجم، ضعيف البنية، يقف وحيدا ورأسه في الأرض، في شارع فرعي خلف سوق الخضار، بعد أن

أغلق السوق. كان يحمل في يده بطحة عرق بحجم كف اليد، من النوع الرخيص. يستلها من جيبه مثلما يستل خنجرا، ويشرب شفة ثم يحدق في المارة، ويعود يدسها في جيبه، كما يعيد الخنجر إلى جرابه.. فهمت أنه من زبائن تلك الطريق المعروفة بتسويق البغاء.. واجهته مباشرة بالسؤال عن..، فقال لي إنه يعرف عروسا متزوجة منذ أسبوع، وزوجها يشغلها في هذه ال.. ولكنها حلوة جدا، وصبية صغيرة.. قلت له: «كم تأخذ؟» قال: «دينارا لها، وربع دينارلي.»

«أين هي؟» فقال: «تعال معي.»

ذهبت معه بسيارة أجرة صعدت بنا الجبل، نزلنا هناك في سوق مكتظ، دخل بي في زواريب معتمة ضيقة، لا أعرف أن أعود إليها لاحقا. قال:

«مر بصمت، ولا تكلم، كي لا ينتبه الجيران.. » تبعته، فدخلنا زقاقا صغيرا ملتويا، تقعد على زاويته غرفة صغيرة.. دخلناها (بدون إحم ولا دستور).. كانت هناك صبية تحت العشرين من عمرها، وما يزال الحناء الأحمر يصبغ قدميها وأصابع يديها، جالسة مكتئبة على طراحة مفرودة بلا حصيرة.. يبدو أنها كانت تعلم بالموعد.. وبدون سلام ولا كلام، مدت يدها لقبض الدينار.. تحت شعار «الدفع قبل الرفع». دفعت لها الدينار

الذي كان مخبئا وحده في جيبي، خوف أن أتعرض لسطو ما.. قبضته الولية وهي تديروجهها إلى الجهة الأخرى.. تبدو المسكينة مغلوبة على أمرها.. طلبت منها أن تنفرج بعريها.. ورغم انقباضها واشمئزازها الواضح من العملية برمتها، إلا أنها كما أتخيل، تحت ضغط زوجها النذل، وربما تحت إرهابه، أنت لا تعرف ظروف هذا العالم.. كانت مستسلمة ومستعدة، إذ خلعت رجلا واحدة من سروالها الطويل بصمت، وبدون إبداء ابتسامة أواستمزاج، فظهرمنها ما بطن، كان محفوفا منتوفا صامتا محاصرا هوالآخر في ذلك المكان الضيق.. فباشرت مهمتي..

لم تكن تتغنج أو تظهر متعة أثناء العملية، ولكنها كانت تأوه بألم، إذ يبدو أنها ما تزال عروسا صغيرة.. وكان الله بالسر عليما..

كان الجميع صامتا مشنفا آذانه، يتخيل المشهد، وكأنه يعيشه في حجرة ذلك السرداب اللعين.

انتهى الملعون من حديثه، فشرب سفيان البوبي جرعة من «عرق أبو سعدة»، الذي تفوح رائحته الشومرية، أو الينسونية، التي تعطر الجلسة، ورفع مع الشباب كؤوسهم قائلين:

«بصحتك» بينما حاول البوبي تغيرالحديث بقوله:

«لاشك أن تزاحم الناس في عمان بعد الهجرة الفلسطينية جعل الزبائن يتدفقون على سوق البالة من كل دار، نظرا لرخصها عن الملابس الأخرى، وجودة قماشها.. مما جعل نسبة المبيعات تزيد إلى الضعف، فصرنا نجرؤ على رفع سعر القطعة قليلا، ونلحس إصبعنا..» فضحكنا على لحسه إصبعه. وقال له ثامرالطامر:

«أنت على هذه الأخلاق، لو لحست لك شيء ثاني، كان أحلى لك».

نظرسفيان البوبي إليه نظرة شزراء، ولكنه لم يملك منع ابتسامة تفتحت على وجهه، وقام ليضربه، فهرب ثامرالطامر، ووقف يحكي قصة خزيه وخمخماته، فقال:

«لو شاهدتم ما حصل لسفيان البوبي أمس إذ كانت امرأة صبية تنحني على بسطة بالته، تفحص الملابس، فحاول الملعون لمس مؤخرتها، وذلك بظهر يده، فنظرت إليه بغضب، فاعتذر الملعون متظاهرا بأن اللمس تم بالخطأ، وعادت المستورة تنحني باحثة عن قطعة ملابس مناسبة، فعاد الحيوان يتحس مؤخرتها التي يبدو أنها كانت مثيرة له، فما كان منها إلا تحولت إليه، وجحظته بعينيها مستشرة، ثم خلعت من رجلها، وضربته بالحذاء عدة ضربات، فتراجع عن بسطته بعيدا إلى الوراء، بينما هي تصرخ في وجهه قائلة:

«ليست كل الطيور التي يؤكل لحمها يا ابن الكلب.. «يضحك ثامر الطامر وهو يتابع قولها له : «ليكن في علمك؛ فبعضها لحمها مسمم، وبعضها لحمها قاسي، وبعضها لحمها مفطس، مثل لحم أمك وأخواتك وامرأتك، هذا إذا كان لك امرأة تحويك.. «فانقض سفيان البوبي على ثامرالطامر، ولببه من عنقه، وبطحه على الأرض، وهات يا ضرب.. .

أشاهدهم يتضاحكون ويتقاتلون، فلا يبقون حديثا إلا وينبشوه، وأما أنا الذي أسمع وأرى كل هذا، فأشرب معهم وأتفرج عليهم، وأضحك كثيرا، ولكنني لا أدلي بدلوي، لأن عيشة البالة كلها لا تعجبني، وليست هي هدفي في الحياة..

«بماذا تفكرإذن يا هربيدي العزيز؟» سألته، فقال:

«أنا بصراحة أفكركثيرا في كل البلاوي التي حصلت، وأريد أن أصفو قليلا، لعلي أتأمل كيف حصل معنا كل الذي حصل، ولماذا حصل، ثم إنه لا بد من عمل ما للمواجهة؟

كان الهربيد كما هو في كل ليلة، حكواتيا متقلب المزاج، يخلط الفرح مع الألم، والسعادة مع الشقاء.. يحكي ما يحصل معه وهو يضحك، ولكنه على غير ما توقعت، راح يقول بتجهم وعبوس، ودموع جروحه تنزل من عينيه بانكسار: أنا لا أشعربالاستقرار.. تراني أعيش في قلق دائم.. القلق يتابعني كظلي منذ ذلك اليوم الرهيب..

أراه يركض خلفي..
يلتف دافعا إياي على يميني ..
أراه ينبت كشوك الصبارعلى يساري.. دين يطالبني به ديان مشكلجي يعرقل خطواتي أينما سرت وأحيانا يسيرخلفي مع سبق الإصراروالترصد..
ولكنني لا آبه به وأنا أسيرفي قاع البلد..
الليل هنا يبدد المارة والبائعين والمشترين، فلا يبقي منهم أحدا.. » يبدو أن الهربيد ليس رجلا بسيطا كما ظننت، فكلامه الشاعري هذا، يفهمني أنه لم يكن سعيدا وهو يضحك في بداية السهرة.. .كأنه يضحك على حياته المرة.. يضحك على مجتمع قاع البلد المرير، وهو يتابع قوله:
«حتى المتسكعين يتسربون بين الشوارع ويختفون، ولكن نفرا من الضالين يبقون يجوبون الطرقات هنا وهناك، يتماوجون مع خطواتهم، على شكل كائنات بشرية غريبة، بعضهم سكارى، وأكثرهم تائهون بلا سكر، لا يملكون نقودا يشترون بها ما يسكرهم، لينسيهم المشروب أهلهم، ويخفف عنهم برد الليل، حيث لا مستقر لهم، وبعضهم أصلا ليست لهم بيوت، فيلجأون لشتم بعضهم بعضا بأقذع الشتائم، التي ربما تخدرمشاعرهم، أو تسكرها..
ترى هل الفقراء المعدمون يشتمون بعضهم بعضا شتائم

مقذعة في القذارة، وذلك لتخدير مشاعرهم الإنسانية، إذ لا يملكون ثمن المشروب المسكرمهما اختلفت نوعياته؟»

قام الهربيد بطوله وأشعل سيجارة بقداحة (رونسون) اسمها مكتوب على جسمها، قال لي إنه وجدها فجأة في بالة من بالاته.. سحب نفسا عميقا ثم ذكرلي أن أحد الزبائن الذي يتردد على بسطته سيذهب هذه الليلة إلى خرابة الصفيح .. سألته:

«ماذا تكون هذه الخرابة؟» فقال: «إنها كومة من البيوت الصفيحية الصدئة المتجمعة في الوادي على شكل هياكل عظمية متناثرة. قريبة من سوق الخضارالذي كنت أعمل فيه عتالا.. هل تعرفها؟» فقلت له:

«بالطبع لا.. لا أعرفها.. فأنا لست من رواد مثل هذه المناطق المغيبة عن مباهج الحياة، وإن كنت سكنت في هذا الفندق الرخيص البالي الجدران، والمحفر الدرجات الصاعدة إلى الطوابق بدون مصعد، فليس معناه أنني أتعامل مع مثل تلك المواقع.. كل مشكلتي أن والدي الذي سيرسل النقود من الخليل، قد تأخرمرساله.. ربما يأتي اليوم أو غدا.. «فقال:

«أرجوأن يتأخركثيرا، كي أبقى أستأنس بك، فلقد تعودت عليك أخا عزيزا، ولم يرح أعصابي ويخفف عني تعاستي أحد مثلك. منذ أن عشت وحيدا في هذه المدينة، لم يفهمني ويقدرني ويحترمني - رجلا لرجل – في هذا السوق، فأبوح له بمكنونات

صدري غيرك.»

«ولكن ماذا يوجد في خرابة الصفيح التي ذكرتها لي قبل قليل؟»

«في تلك الخرابة المنزوية على حافة السيل، والبعيدة عن حركة السوق، يتجمع حوش صفيح بعيد عن الأنظار نهارا، ومعتم ليلا، وفي فجوة لا تبدو جلية على الأرض، فلا تلفت نظر رقيب، ولا حسيب، ولا معين، ولا محقق، تقف امرأة عجوز -كما قال لي الزبون-، منتظرة.. «تنتظرماذا؟»

«تنتظر أي أحد مقطوع من شجرة، يمر من هناك..» «لم أفهم عليك»

«عندما تسود ظلمة منتصف الليل، تجد عددا من المشردين الضالين، والسكارى التائهين في قاع البلد يمرون من هناك، باحثين عن مأوى يبيتون ليلتهم فيه، وبعضهم يمرليتشمم رائحة نساء ليس لهن أهل، أو مريضات نفسيا، أو فاجرات لا تقف أمامهن حواجز، وحتى لو تم حجبهن في قمقم مسدود، فلا يستطعن الامتثال لحدود المجتمع، تجدهن متمردات خارجات عن أسرهن، أو مومسات تائهات لا بيت يؤويهن، فيذهبن في أي اتجاه، فيكون مأوى إحداهن في وكر العجوز، في ذلك البيت الصفيح على منحدرالوادي، والتي تسخره ليكون خانا رخيصا لا

يخضع للرقابة، بصفته خرابة غير مرخصة البناء، وغير داخلة في دفاترالحكومة أصلا.»

«من أين يأتي هؤلاء المشردون؟»

تستطيع أن تقول إنهم ضحايا المجتمع. أناس طحنهم المجتمع، جففتهم رمال الصحراء، ولا أقول لفظهم البحر، أذ لا بحرفي هذه المدينة.. ليسوا أناسا سيئين كما يتصورهم المجتمع، فهم أناس من بني آدم، من دم ولحم، تخلت عنهم الحياة، فساروا على غير هدى.. تجدهم يتهاوون ليلتقطوا أنفاسهم في مثل هذه المواقع، فتنهال على رقابهم نفايات الحياة.

تسألني من أين يأتون؟ أقول لك إنني شاهدت بعض ملامحهم، بينما كنت خارجا من سينما دنيا، بعد منتصف تلك الليلة.. شاهدت بقايا رجلين يجلسان على الأرض، مقابل السينما، يسندان ظهريهما على حائط تجمع عليه كومة من النفايات، وقد تعود الخارجون من السينما في ذلك الليل البهيم أن يبولوا عليه. هناك تجد الشوارع خالية من الناس، لدرجة العدم، إلا من السكارى، وندرة من شريبة (السبيرتو) المعدمين..

وبدون توقع مني، صدمني رجل بهيم، شاهدته يمروحيدا على شكل (خرتيت) وحيد القرن، شكله بال، ووجه غاص بالشعر، وهو يعوي مثل ذئب ضال «إفصعْ!».. ويردد قوله، دقيقة بعد دقيقة : «إفصعْ!».. «إفصع!».

وفجأة خرجت امرأة من سيارتها الخاصة بملابس أنيقة، وهي تنظرجهة زاوية الشارع، وتصيح بأعلى صوتها الفاجر:

«ولك!.. والله لأنيـ.. أختك يا أخو الشر.. » فانطلق ثلاثة أولاد هاربين من الزقاق، وقد كانوا يتجمعون منتظرين دورهم ليبيع كل منهم وحدة دم بدينارين لتاجرسوق سوداء.

وبعد الاستفسارفهمت أن التاجرقد اشترى، والأولاد قد باعوا، بدون أن تحصل المرأة المتنفذة على عمولتها.. يبدو أنها هي التي تستلم البضاعة، وترسلها إلى مستشفى أو مركزإسعاف للمعوزين..

كان بقايا الرجلين الجالسين إلى جوار بعضهما يتبادلان مصمصة آخرقطرة من زجاجة براندي، من الكونياك الرخيص، والذي يسمونه تجاوزا «ديزل»، تستطيع أن تقول إنه أرخص أنواع المشروبات التي يصنعونها هنا داخل مخازن دكاكينها، وكله كحول سبيرتو، يحترق داخل الجسم، فيشعله نارا، وذلك اتقاء للبرد، في ذلك الليل الشتوي القارس.. أدهشني أحدهم الذي كان يبكي وهو ويقول لرفيقه:

(بيهون عليك يا اخوي أنها مرتي تضربني على راسي بالكندرة.) ثم يكرر ذلك وهو يتوجع وينشج :

(بيهون عليك إنها مرتي.. مرتي تضربني على رأسي بالصرماية؟)

ويبدو أن رفيقه المخدر لم يفهم، أو لم يسمع من أصله شيئا مما يقوله الرفيق، وذلك لشدة معاناته وسكره، فمد يده، وراح يطبطب على كتفه، ويخفف عنه مصابه، مطمئنا: «بيهون، بيهون.» مثل هذين التائهين قد يكون مأواهما آخر الليل في مثل تلك الأماكن الصفيحية التي لا يستقبلهما مكان غيرها، ما داما لايملكان إلا النزر اليسيرمن النقود.

يبدو أنهم يعرفون طريقهم، وغيرهم كثير، مثل ذلك الخرتيت الذي مسحت شاشة عقله، فلم يبق في ذاكرته من كلام يصحي النائمين في هذا الليل البهيم، إلا بتكرار عوائه مرتفع الصوت الجهور : «إفصع! إفصع !»

قبل أيام شاهدت امرأة تسير بعد منتصف الليل على غير هدى، في طريق لا نهاية له، حتى بلغت كومة الصفيح هذه.. كنت أسمع قرقعات تنكة صفيح تدحرج بعيدا عنها، بفعل الريح الهوجاء التي تدفعها بقسوة لتسقط في السيل وهي تجعر مولولة.

شاهدت العجوز الجنية تلك المرأة التي تحرك سائرة على شكل بقجة سوداء تحارب الريح، فبادرتها بالشتائم. هكذا هي ترحب بزبائنها، سواء كانوا رجالا، أو واحدة من النساء، فتقول لها : «من أين جئت يا قحبة الشياطين؟ وهل بقيت عاهرة حتى

الآن لم تعد الى بيتها؟ إذا لم يكن لك وكر تنامين فيه، تعالي لتنامي عندي، فأنا خاوية الوفاض، وليس عندي كلاب ضالة هذه الليلة.»

تدخل المرأة الضائعة الى جحر المرأة العجوز، فتشاهد في العتمة أشباه رجال يتململون قبل النوم، فتسرب إلى الداخل، وتوارى في العتمة!

تجد مثل هؤلاء التائهات ينزلن بين جدران صفيح تلك الجنية، يأكلن مما يحضره أشباه الرجال، وينمن معهم على الأرض، أو على سرير حديدي يزعزق، حيث يتناوب الساقطون بسكرهم مضاجعة هذه الساقطة أمام الآخرين، وذلك في بث مباشر على الهواء المخنوق.. تراهم يشجعون بعضهم بعضا، ويتدخلون في ثقوب بعضهم، ويشتم بعضهم بعضا، وأحدهم يبصق على الأرض في اتجاهات مختلفة، بينما الجنية، تدخل وتخرج، محضرة كيلة ماء من جرة منتفخة أوداجها، قابعة في حوش الصفيح، ملفوفة بقطعة خيش مرطبة للتبريد، وفي الزاوية تجدها تنفخ بابور الكاز، لتغلي إبريق شاي «حبر» محلى بالسكر، فتضعه على الأرض ليشرب منه الجميع.

تأخذ من هذا عشرة قروش، ومن ذاك ربع دينار، أو حسبما يكون معه. وقد تأويه بالدين.. وقد لا يدفع أبدا، فلا تقوم لهذه الخيانات خناقات ولا مشاكل.. . إنها امرأة غيرمادية،

بقدرما هي تريد أن تعيش حياتها الخاصة.. المهم أن تمارس بقايا حياة اعتادت عليها، وأن تحصل على قوت يومها مما يحضره الآخرون، موقنة أنها لا تستطيع الخروج من هذا التابوت الصدىء إلا الى المقبرة.. » سألت الهربيد:

«ولكنك لم تقل لي؛ ماذا ستفعل لتغير واقعك هذا، وأنا أشعرأنك رجل مثقف ووطني، ولا تستكين لواقعك المر؟»

«مشكلتي أنني قرأت الكتب، فصرت (أميز الثور من الطحين)، وأعرف الحق والباطل، وأعشق الوطن العاق، الذي حرمنا من البقاء فيه، ولو على رأي أبي؛ على الأقل، لنتمتع بممارسة حرية السرح لرعاية الغنم..

ولهذا أشعر بأن هذا المكان ليس لي.. ليس لنا.. بل هو بوتقة قذفنا إليها، ليتحطم كل ما فينا. وأجدني في كل يوم أعد نفسي لأقاوم الاندثاروكي لا أبقى على هذا الحال.

الليلة الخامسة

لم يكن لقاؤنا هذه الليلة في الفندق، بل التقيته صدفة وأنا أسير في الشارع العام أمام مقهى السنترال، مقابل مطعم جبري المعروف في قاع البلد، وذلك بعد أن خفت حركة الشوارع، بعودة معظم أهل المدينة إلى بيوتهم، بعد يوم حافل من العمل والشقاء والتعب، وبقاء ندرة من المحلات التجارية فاتحة، وقليل من البائعين والمتسوقين.. حيث يأتي دور المتسكعين والسهيرة بعد التاسعة مساء..

اخلع! وإذ بي يا محترم وجها لوجه أمام الهربيد، ذي الشعر الطويل، الذي التقاني بترحيب شديد وبشوق غامر، وكأنه يلتقي أعزالأصدقاء المحبين.. وهات يا هلا، وهات يا مرحبا..

كان متفاجئا بي وهو يحتضنني بكل اهتمام وتبجيل،

وكأنه لم يشاهدني منذ سنة، فهمت لاحقا أنه كان يفتخر أمام جماعته في شارع مقهى السنترال، ليريهم أنه زميل للدكاترة والطبقة الجامعية!

قد يكون الرجل يعاني من عقدة نقص يا حرام، لعدم قدرته على دخول الجامعة، ويريد كما شعرت أن يتقرب منهم، أو يعيش معهم، فيتحاور مع أي طالب جامعي، لإقناع نفسه بأنه زميل للجامعين.

كنت محرجا من هذا اللقاء الذي يجمع بين طالب طب أزهري، يتخيله الناس عالما أزهريا ووقورا، وبين رجل يشبه طرزان الذي كنا نحضر أفلامه ونحن صغارا، وهذا ما يخلق تناقضا بين الشخصيتين، إذ قد يقول أحدهم:

«وما الذي يجمع هذين الشخصين المختلفي الهيئة والملابس والعمر بهذه الحرارة؟» بصراحة، كنت كمن أسقط بين يديه، ولكنني لم أستطع الإفلات منه.

قابلت تحيته بأحسن منها، فما كان منه إلا أن دعاني إلى مقهى السنترال، الذي يفتح باب درجاته في مكان وقوفنا.. قلت له إنني على موعد مع زميل لي في مقهى كوكب الشرق، في شارع الشابسوغ، فقال:

«بلا كوكب الشرق، بلا كوكب الغرب. تعال نشرب شيئا هنا في السنترال، ثم اذهب إلى صديقك، أو إلى كوكبك يا أخي،

فأنا لن أربطك بالسنترال.» وبينما نحن نتناقش، مر بنا على رصيف الشارع رجل متجهم، حاد النظرات، يرتدي ملابس كتانية حربية، وعلى رأسه طاقية تشبه طاقية هتلر، وعلى صدره عدة صفوف من النياشين المزركشة الألوان. مع أن ملابس هتلر كلها كانت تخلو من النياشين، عدا شعار الحزب. كان شاربه مقصوصا مثل شارب هتلر، فسلم عليه الهربيد، ولكن هذا الهتلري المظهر لم يطل الحديث معه، بل صافحه ومضى في سبيله، جاد الهيئة والنظرات، مشغول الفكر، وكأن الجيوش والقوات تقف الآن متعسكرة بانتظارأوامره.

سألته عنه، فقال:

"لا أعرف من اسم هذا الشخص الذي يلفتني شكله، سوى (الفوهرر هتلر) ولكنه يزورني أحيانا، فيقف أمام بسطة البالة صامتا وهو يقلب هذا الحذاء العسكري الأوروبي، ويتفحص تلك الطاقية الألمانية.. أقول له: أهلا (فوهرر هتلر) ورغم شعوري بأنه يألفني، إلا أنه لا يتجاوب معي بابتسامة أو بكلمة، بل يقف بدون حديث.. أتمعن النظرفيه، فأرى أنه يتقن تقمص شخصية هتلر."

سألته: " لماذا هتلر بالذات؟ هل يحب ذلك القائد الصلب، الذي انكسر مثل انكسار رمح فولاذي ارتطم بحائط

صلب؟ هل يرى نفسه قائدا فلسطينيا فاشلا مهزوما أمام اجتياح الصهاينة المدججين بكل أسلحة وإمكانيات الغرب لباقي فلسطين الشرقية، مثل هتلر؟ أم إنه يرى الحكام العرب القساة هكذا مهزومين؟ أم إنه يعيش حياة من هلوسات الرغبة في انتقام الجريح.. انتقام المشرد في الفيافي والقفار.. انتقام الأسير.. ؟ أم إنه يعيش حياة من لم تعد له حياة، بعد تلك الحياة.. حياة ممزوجة بالغموض، بالالتفاف حول الذات، بالكراهية، بالرغبة في المقاومة.

لم نطل الوقوف أمام المقهى.. صعدنا الدرجات الكثيرة، حادة الطلوع، التي يعرفها معظم شباب حركة المدينة؛ المتعلمون والصنائعية وغير المتعلمين.. ونحن ما نزال نستغيب تلك الشخصية الغريبة العجيبة..

ولا شك أن مقهى السنترال يعتبرملتقى الأصدقاء والمعارف والناس المتضايقين من زوجاتهم، والمكان الذي يستطيع فيه لاعبو طاولة الزهرووورق الشدة، أو حتى المنقلة، أو (السيجة) أن يمارسوا هواياتهم، ويستطيع هواة شرب النرجيلة التمتع بكأس شاي ثقيل، وشفط الخرطوم الذي يعده النادل على كيفكيف الشارب، ويقدمه للزبون، ولكن بعد أن يذوب ربع الحجر الذي يصله متأججا، فأدرك أن النادل لا يشعل حجر النرجيلة لفعل الخدمة، بقدر ما هو يشعله بهدف شفط ما يستطيع شفطه،

قبل تسليمه لمن يستمتع بتدخين النارالمتقدة. ولهذا كنت عادة إذا ما صعدت درجات مقهى السنترال، أتجه في قمتها إلى جهة اليسار..

ولكن الهربيد عند قمة الدرج حرف مسيرتي إلى جهة اليمين، وهي جهة غير معلومة لي. ما هذا الوكر! مكان لم أدخله من قبل.

لم أكن أتوقع وجود هذه الغرفة الصغيرة التي لا تزيد مساحتها على عشرة أمتار هي وزجاجات خمورها المتنوعة المرصوصة على رفوف خشبية محفور عمقها في أحد الجدران، بينما النادل يقف بين طاولات الشاربين المربعة الصغيرة، بمساحات حوالي ربع متر لكل منها.. قد يكون الهدف أن تسع لزبائنها الكثيرين ضمن بوتقة السكروالعربدة هذه.. تجده يحاور هذا، ويقبض من هذا، ويقدم الشراب لذاك، ويداعب الحضور الشاربين المكدسين في المكان من المتعوسين والخاسرين والفاقدين والقانطين والظالمين والمظلومين والفاعلين والتاركين والغاضبين، والمغضوب عليهم، متفاعلا مع بلاويهم الزرقاء.. ثم يعود مقطبا جبينه نحورفوف مشروباته وحوض مجلى الكؤوس والصحون وسطول الترمس والفول المسلوق وبذور القرع المملح، والفول السوداني المقشور، وما إلى ذلك مما يطلبه المستمعون.. آسف، أقصد.. مما يطلبه الشاربون.. اختلط علي تفكيري بذلك

البرنامج الذي تقدمه كوثرالنشاشيبي بغناء فيرزو:

«وسلامي لكم.. .

يا أهل الأرض المحتلة..

قلبي معكم، يا منزرعين بمنازلكم.. » ولكن كوثر النشاشيبي لم تقل

لنا:

«ملعون أ.. .، يا مهجرين إلى خارج الأرض المحتلة.. وذلك بعد أن تم توحيد فلسطين تحت سنابك الاحتلال؟»

أشعر اليوم أن فلسطين قد تم توحيدها تحت حراب الاحتلال، لتصبح دولة أخرى ذات سيادة أو هيمنة إن شئت، سموها «إسرائيل»، وأن فلسطين قد راحت علينا هكذا بكل صمت، ولم تقم للعرب بعدها قائمة لإرجاع الأراضي المحتلة.. حتى المطالبة بها صارت تهمة، أو جريمة، قد يحاسب عليها القانون العربي، أينما اتجه الفلسطيني.

لم تكن في الحانة نساء يروين الرجال كما كانت الجارية «أنس القلوب» أو الجارية «أريكة» أو «الخيزران»، تعمل راوية فيما قبل الإسلام، أو حتى بعده، فإن من يروي الرجال هنا هو رجل مثلهم.. ما تزال مثل هذه الأماكن محافظة، وليس فيها راقصات، أو بنات ليل يعرين جيوبهن، ليظهرن مفتنهن وهن ينحنين بنهودهن المندلقة أثناء تقديم المشروب. أحدق في وجوه

الرجال المحمرة المصفرة المسودة المشدودة المجعدة المسترخية الضاحكة باكتئاب، وأنا أقول لنفسي:

أنا لم أتعامل بالمشروب قبل ليلة الهربيد الشريرة تلك، ولكنني أتساءل حسبما أراه في هذا المجتمع الشريب: لماذا يتورط الرجال المغلوبون على أمورهم بالدخول إلى مثل هذه الحانات، حيث أن ثمن كأس واحدة من المشروب هنا يكلف ثمن زجاجة كاملة منها لو أنه اشتراها من مخزن الخمور، وشربها مجزأة في بيته؟

ورغم معارضتي للشرب، فمن الأفضل للزوجة «المستورة» والمغلوبة على أمرها، أن تسمح لزوجها «المفضوح» بشرب الخمر في بيته، بدل أن يدفع عشرة أمثال ثمنه وهو يشربه في البار، وقد يجرفه البار إلى لعب القمار، أو التورط مع أولاد الحرام، أو بنات الحرام، بما يكلفونه من مصاريف وديون وأمراض منقولة.. ولكنه لو شربها في بيته، فقد يعود لزوجته، ومعه مثل ما جاءني به الهربيد في تلك الليلة من رؤوس وكوارع مشوية من محلات البلد، وقد يوفر هذه النقود ليشتري بها حاجات البيت وهي كثيرة، ولكن بعض الزوجات الغبيات.. !

ولهذا ادفع يا أبو الشباب عشرة أضعاف الثمن (الله لايردك)!

لا داعي للفلسفات التي ليست في مكانها ولا في وقتها.. أتابع

مع الهربيد الذي يجلس في البار على راحته، ويتصرف رافعا رأسه، ناظرا إلى هنا وهناك، وكأنه صاحب محل، ولهذا فهو يضيفني بكل ثقة بالنفس، وذلك بدعوتي للجلوس على كرسي قش خشبي شامي، له ظهر يستند عليه الشارب.. وعلى هذا المشهد أجدني أسأل نفسي:

«لماذا أجد كراسي القش في المقاهي بلا ظهر، وأما هنا في الحانة فمن الضروري أن يكون لها ظهر؟ هل السبب هو استرخاء الشريب على ظهرها، بدون أن يقع من سكْره.»

وبشهامة المضيف الكريم المقتدر، وبدون مداهنة، يأمر الهربيد النادل، مشيرا له بذراعه الطويلة:

«هات! احضرالمشروب الذي يطلبه الدكتور.» هكذا لفظها بصوت عال، ليسمع من لا يسمع، أنه يرافق دكتورا.. وكالسابق أقول له: «إنني لا أشرب.».

«اشرب يا دكتور، عادي، ولا يهمك، اشرب!»

«يا رجل صدقني أنني لم أشرب في حياتي أبدا غير تلك الجرعات القاتلة التي جرعتني إياها تلك الليلة!»

«يجب أن تشرب! لا تستحي، فالشرب للرجال.. هات يا حمدان!»

وبصوت جهور، يأمر النادل مرة أخرى، الذي يقترب من الهربيد وهو يعلق على صدره مريلة عمل مصقولة القماش

الشمعي الأصفر، مربوطة بخطين عريضين خلف رقبته ومثلهما على ظهره، وينحني واضعا يده اليسرى بتودد وملاطفة على كتف الهربيد، ومقربا شفتيه من إذنه، فتدلى المريلة لتقف حاجزا بينهما، وهو يقول له بصوت منخفض:

«ولكن الدين عليك زاد يا هربيد. صارعليك هذا الأسبوع عشرة دنانير.مبلغ مش قليل!»

«ماذا تقول؟».. يقف الهربيد صارخا بالصوت العالي، وهو ينحني نصف انحناءة بطوله الفارع، باتجاه رفوف زجاجات المشروبات، فيفع فيه مادا ذراعا يهدد النادل، وذلك بصوت يجلجل المكان، ويصحي الشريبة من سكرهم:

«وهل هذا وقته، ومعي دكتور عزيز علي؟ أقول لك نزل للدكتور ما يريد، وإلا قمت ومسحت لك زجاجات هذه الرفوف كلها، ليعوم المشروب على الأرض!» يرتعب النادل حمدان فيتقدم مني ويسألني: «ماذا تريد أن تشرب يا دكتور؟» أجد نفسي محاصرا بين جنون الهربيد، وفضيحة الحانة، التي لست أنا من روادها، وبين الديون المستحقة على الهربيد، فكيف أجمع كل هذه المتناقضات معا؟

قلت له:

«لن أشرب إلا إذا سمحت لي بأن أدعوك هذه الليلة على

عشاء رؤوس وكوارع محترمة، أحضرها من مطعم أصحابك، أولاد مشربش.»
يبتسم بملء شدقيه وهو يقول:
«موافق.أحب أن يكون بيننا «رؤوس وكوارع» أقصد؛ «عيش وملح.» فأقول له:
«وعصير، ولكن بدون مشروب يا صديقي.» .. يفرح لكلمة صديقي، ويقول:
«دع إحضارالمشروب علي، فأنا كفيل به.»
ولدى إصراره أجدني أشاور رأسي، فأقرر اختيار أخف المشروبات، وأطلب زجاجة صغيرة من الجعة، ويطلب الهربيد لنفسه كأس عرق، يدلقه في فتحة رأسه، ثم يطلب الثاني وهو يبادل النادل نظرات جاحظة..
وعلى الجهة أخرى، وشوشني، وقال لي تفسيرا للمشادة التي لم تحصل، أنه يدفع ديونه لهذا البار كل خميس، وذلك تباعا لحسابه الأسبوعي. وخلال الجلسة يروح عرابي المذهل يحدثني عن أشياء كثيرة، فيقول:
«نحن أحيانا نحضر فيلما في سينما ستوديو زهران، هذه القابعة على الشارع، مقابلة لعمارة المقهى، فوق سينما زهران نفسها. وهذه السينما مشهورة بأنها تعرض أفلاما جنسية.»
ارتبكت لقوله هذا، فتراجع مستدركا:

«ليست جنسية بمعنى الكلمة، ولكنها تدافعات غرامية، يلتقط الواحد منها مشهد فخذ امرأة راقصة مفتوح نصف فتحة، أو لقطة عشق غرامي قد يكشف بعض عريها، بدون كشف ذلك المستور الأعظم.»

يقول هذا وهو يضحك ضحكات جهورة، تديرنحونا رؤوس رفاق الكحول، الذين يتحدث كل منهم لجليسه، مع الانشغال بفصفصة بذور التسلية، التي توجب استخدام كل منهم إصبعيه؛ السبابة والإبهام لزج البذور، أو الترمس المسلوق المملح للمثول صاغرة بين أسنانه، لسلخ جلودها، قبل مضغها.. تجدهم كلهم معا يفصفصون ويتحدثون ويتضاحكون على بلاويهم الزرقاء.. ولكن بعضهم راح يشنف آذانه نحونا، ليفهم موضوع ضحكاتنا الفاجرة هذه.

أبدي اندهاشي وأنا أتذكر أفلام سينما الفانتازيو وجمهور سينما الترسو في القاهرة، والتي قد يقدم بعضها مشاهد غرامية مثيرة للشباب الطائش الفقير، الذي لا يأتي للثقافة، وإنما يأتي خصيصا لمشاهدة بعض لقطات الفتوة العنيفة، ولاستثارة بأجساد صبايا فائرات الدم، ذوات الأثداء المندلقة بجيوبها المشقوقة، مع الاحتفاظ بحلماتها مخفية حسب أوامر الرقيب.. بينما يتابع الهربيد قوله:

«ولهذا فإن الشباب الفائع يغزو هذه السينما، خاصة

إذا كان هناك فيلم يتسرب خبره من إعلانات السينما نفسها، على أنه مثير.. ولزيادة شغف الشباب لانتظار الفيلم القادم، قد تعرض شاشة السينما في دعاياتها التي تسبق الفيلم، لقطة سينمائية توضح إثارة لم يسبق لها مثيل، وتدعو المشاهدين لترقبها في الفيلم الذي تقول إنه حطم شباك التذاكر، وتفوق على كل العروض.. » كنت أنصت مستوعبا هذه المعلومات التي لا أعرفها عن المنطقة، وخاصة سينما ستوديو زهران المختفية خلف سينما زهران، بينما الهربيد يواصل تخرصاته المضحكة، فيقول:

«هذه السينما لا تحضرها نساء، لأن سمعتها فاضحة، وقد تذهب من تريد مع زوجها أو أحد محارمها أو صويحباتها إلى سينما الحسين، التي أنشأوها حديثا عند موقف سفريات الشابسوغ- العبدلي.. ولهذا يأخذ الشباب راحتهم يا حبيبي في أفلام ستوديو زهران، بالتعليق على المشاهد المثيرة في الفيلم، وقد تحصل حقارة أن يقوم أحد جلوس شرفة (البنوار)، بينما الفيلم شغال، وصالة السينما معتمة، بممارسة العادة السرية، مستثارا من مشاهدة عرض مغر.. وقد يخرج أحدهم فور انتهاء الفيلم بأقصى سرعة وهو مستثار ليغزو عش زوجته التي قد تكون نائمة تشخر بعد منتصف الليل.. وفي مثل ذلك الوقت المتأخر في عودته، تفاجأ الزوجة وهي تصحو على حركات زوجها

الذكورية العنيفة، فتختفي مفاجأتها بشراسته، وتسترخي متحملة مدافشته، فتعود لنومها، تاركة إياه يفعل تحت سروالها الطويل، ذي الرائحة غير النقية، والذي يختلف تماما عن السروال الرقيق لتلك الممثلة الساحرة الجمال، ما يريد، وهي تقول له:

«عندما تنتهي من شيطنتك، لا تنسى أن تغطيني.» أضحك معه على هذه الشيطنات السوقية، فيتابع قوله: «الذي يضحكك أكثر أن الجيش انتبه لهذه السينما اللعينة، التي يشغلها شباب مهووسون، فيهم طاقات زائدة عن العادة، ولهذا يبدو أن الجيش وضع خطة خاصة للتعامل مع مثل هؤلاء الشباب، إذ فاجأهم ليلة الخميس الماضي بإرسال شاحنة جيش طويلة عريضة، مشدرة بغطاء محكم، وذلك أثناء العرض الليلي الأخير للفيلم، والذي يستمر حتى بعد منتصف الليل، رجعت بمؤخرتها إلى باب السينما الرئيس، ففتحت بيت النار الذي يخرج المتفرجون من عتمته، وهم يتضاحكون ويهرجون ويتدافعون، غير منتبهين لفم المغارة المفتوح أمامهم، وهم لا يدركون أن عددا من الجنود المكلفين يقفون مستعدين بملابسهم العسكرية على الجانبين ليضبطوا تمرير الشباب، ودفعهم باتجاه باب صندوق الشاحنة الضخم، فيوجهون المتفاجئين بهذا المشهد المربك للدخول الإجباري إلى الشاحنة،

وبين مناقشة ورفض واحتجاج ومعارضة وخضوع لمنهج القوة، يتم إدخال قطيع منهم إلى الشاحنة، التي تمتلىء بهم، فيغلق بابها، بأيدي الجنود، ثم تنطلق خارجة بهم إلى مكان مجهول عليهم، لم يتوقعوه ولا في الخيال.. » أشارك الهربيد ضحكه على هذه المشاهد، بينما هو يتابع سرده قائلا:

«.. بينما ترجع مكان الأولى شاحنة أخرى لتعبئ الدفعة الثانية من رواد الفيلم الذين كانوا سعداء قبل وقوعهم في المصيدة.. وقد تأتي ثالثة ورابعة، فتمتص من السينما هذا الهرج والمرج.. ناقلة إياهم من عمان إلى «خو»، حيث معسكرات التجنيد الإجباري الرابضة شرق الزرقاء، على فم الصحراء في انتظارهم، بادئة بالترحيب بهم على طريقتها الخاصة، وذلك بحلاقة شعور رؤوسهم بماكينة الحلاقة على الصفر.. » كان الهربيد يسرد، بينما أنا أضحك متسائلا في نفسي عن سبب حلق شعورهم.. هل هوللتنظيف؟ أم يكون خوفا من أن تعش جماعات القمل والبراغيث في غاباتها الكثيفة المعتمة؟ أم تكون الحلاقة هي الخطوة الأولى في كسرشيطنتهم وغرورهم، ودفعهم لامتثال للأوامرالصارمة التي لم يتعودوا عليها؟

أتناسى هذه الأسئلة المتدافعة، وأتابع الاستماع لطرائف الهربيد الذي يواصل قوله:

«وخلال يوم أو بعض يوم، تم معاملات تسجيلهم،

وإلباسهم ملابس التجنيد، وإبلاغهم عن رواتبهم الرمزية، التي قد تسدد لهم حد الكفاف من مصروفهم الشخصي.. وخلال هذه الأيام، يعلم أهلهم بخبر التجنيد، فتهدأ خواطرهم، وقد كان كل منهم يعتقد أن ابنه قد تورط مع الأشقياء في غيابة الجب.. ولكن العرف السائد عند الناس يقول:

«إن التجنيد الإجباري يخلق من الشاب الفائع المدلل رجلا فحلا يعتمد عليه.» أما وقد عرفوا مكانه، وأن التجنيد للرجال، فإن القلق يزول، والشباب يتعودون على حيواتهم الجديدة التي لم يكونوا يتخيلونها من قبل، وتجد أن الأمن يستب في العنابر، بينما يخف الضغط على سينما ستوديو زهران هذه، ويكاد ينقطع رزق صاحب السينما الذي يحاول الانضباط بعض الشيء، فيعود يعرض أفلاما قليلة الإثارة، بهدف أن ترتادها العائلات التي تحب مشاهدة أفلام السينما.. حيث أن البث التلفزيوني الأردني لم تنتشر شعبيته بعد، وهو في بدايات تشغيله هذه الأيام، ولا توجد وسيلة ترفيه أو تثقيف مرئية غيروسيلة السينما..

لا ينتهي الهربيد من سرد حكاياته، ولكنني أنتهي من شرب محتويات الزجاجة الصغيرة، فيطلب لي مضيفي واحدة أخرى، أرفضها بكل إصرار وحدة، ثم أقوم شاكرا ومقدرا، فيقوم الهربيد معي، ونخرج من دون أن يدفع مضيفي ثمن المشروب..

أشعر بحرج شديد.. يا فضيحتي في هذا السوق الذي لا يعرفني فيه أحد..
قد يفتحون لك ملفا يا محترم لتكون من أصحاب الأسبقيات.
قد تكون هذه أول صفحة في ملفك السوقي يا «سوقي الدكترة»!
وعند قاع الدرجات الحادة النزول، المنتهية برصيف ضيق للشارع، أشكره، وقبل أن أودعه بحرارة، أتفق معه على أن ينتظرني بعد ساعة في غرفة الفندق لأحضر الطعام المتفق عليه، فيوافق، ويودعني وهو يغادرسعيدا.
وما دام هو قد ذهب إلى جهة اليمين، ذهبت أنا إلى جهة اليسار، شاعرا أنني قد تخلصت من مغناطيس مدهش كان يجثم على صدري طوال الوقت.. آه ! يا لطيف!
وبعد أن اختفيت يا حبيبي عن ناظريه بعشرات الخطوات، وتأكدت أنه لم يعد له وجود في المنطقة، عدت مسرعا، فتسللت صاعدا عمق الدرج الطويل، ودلفت إلى البار بكل جسارة، متجاهلا الشريبة، وعيني على النادل، وكأنني صرت من رواده، فسألته عن ثمن مشروبي ومشروب الهربيد لتلك الليلة، فقال لي: «خمسون قرشا».
دفعتهم، وتأكدت من شطبه لهذا النوع من الدين الذي

لم أتخيل أنني سأقترفه في حياتي، وخرجت مسرعا، وقد بيضت صفحتي المشبوهة الأولى في هذا الميدان، الذي لست أنا من فرسانه!

أتوجه إلى شارع الملك طلال، لشراء لوازم العشاء المتفق عليه، وأنا أفكر في شخصية الهربيد هذه، التي تداهمني من فندق الوادي إلى مقهى السنترال..

هكذا كان يأتيني وهو شارب مشعشع، بأبهى ما يمكن، فيحدثني بقصه المدهشة، ويبدي لي محياه الجميل.. أجده يضحك، وأحيانا يقهقه، وأحيانا أراه منشرح الصدر، ودودا، رائق المزاج وهو يشرب.. ولكنه وحش كاسر إذا نضب الكحول من شرايينه.. يااااا مخيف!

تجده يبكي وهو يشرح عذاباته وضياعه المرعب، فأتذكر قول الشاعرالمعتق عرار:

«بعضهم يشرب للسكْرولكن

بعضهم يشرب يا شيخ ليصحو.»

الليلة السادسة

جاءني هذه الليلة وهويضحك.. هكذا (من الباب للطاقة).

«على ماذا تضحك؟»

«أضحك على نفسي، وعلى تحايل الجبالي علي، إذ أعادني إلى بيت الطاعة.»

«ماذا تقصد بالإعادة، وكيف تمت العودة الميمونة؟»

قال لي صباح هذا اليوم بينما أنا واقف لتسديد ديني له، وشراء بالة جديدة بالدين كالعادة: «ألست تقول يا هربيد إنك توفر ثلاثين دينارا كل أسبوع؟ ما رأيك أن أعطيك هذا المبلغ، وتعود إلى قواعدك سالما.. تعود فتخلص من تحمل مسؤولية بسطتك التي يناكفك عليها قبضايات (الخاوة).. بصراحة.. فكرت كثيرا في الموضوع..

وبالفعل، أنا لم أقل لك؛ فثاني يوم وضعت ملابس بالتي على الرصيف، جاءني رجل من هؤلاء القبضايات المشطبين بالشفرات، وربما بالسكاكين، يضع على ذراعيه وشما أزرق برسومات خناجر متوجة برسم بنت حلوة يسميها العنود، يرافقه خيال شخص تابع، يتشاجع بظل زعيمه، وبعد أن بادرني بالسلام والكلام الهادئ، وبمنتهى الذوق والأخلاق، أبلغني وهو ينظرإلي نظرة ضبع نتن، أنني أخذت مكان بسطته.. قلت له:

«هذا مكان عام وليس مملوكا لأحد.»

«مكاني.. »

«مش مكانك.. »

«مكاني..» راح مرافقه يتطاول علي، شاهرا «موسا كباسا» يحركه يمينا ويسارا على شكل ذيل كلب شرس يتماوج ذات اليمين واليسار، بينما الزعيم يدفعه بعنف، ليظهر إبعاد شره عني، وأنه يحميني من شرورشوارع ليست لي قدرة على مواجهتها.

انتبهت أنها مسرحية مدبرة.. كنت أرى كلاب غنمنا الوديعة تهاجم السيارات المارة، وتلحقها وهي تنبح بصوت شرس، وكأنها تريد أن تقطع حديد السيارة المارة بأسنانها.. ولكنها في الحقيقة لا تألو على شيء.

شعرت أننا قد نتذابح على مكان وهمي، لا يعدو كونه رصيفا عاما للبلدية.. بعدها جاء واحد من بعيد، فهمت لاحقا

أنه ثالثهم (.. .. .)، فقال:

«يا جماعة أنتم إخوة، ولا داعي للمذابح.. ولا نريد أن يسيل الدم للركب هذا اليوم.. خلص يا عمي، ادفع له نصف دينار كل يوم أجرة المكان، وكفى الله المؤمنين شر القتال.. قلت في نفسي :«قال مؤمنين قال.. !»

باختصاروجدت نفسي دائخا بين البلطجي ورفيقيه. ماذا أفعل؟

لا داعي لطول السيرة، قبلت مبدأ «الدفع بالتي هي أحسن»، ولكنني قلت له:

«أدفع لك كل يوم عشرة قروش».. هجم علي صاحب الموس الكباس ثانية، دافعا إياه باتجاه صدري، وهو يصيح بي: «ماذا؟ عشرة قروش؟ هل نحن نشحذ منك يا كلب؟»

يا ويلي، ألهذه الدرجة وصلنا؟ إلى مرحلة كلب؟! هجمت عليه، فعدنا للشد والدفع.. لم يسعفني أحد من الباعة، أو حتى من رجال الشرطة المكلفين بالأمن. عندها فهمت أن الشوارع محمية فعلا.

كان الهربيد يصف الشوارع المحمية، وكنت بدوري أتذكر رواية اشتريتها مستعملة من رصيف أزبكية القاهرة، وهي الرواية الوحيدة للمسرحي الألماني الشهير (برتولد بريخت) بعنوان «البنسات الثلاثة» قرأت فيها أن العسكري فيوكومبي العائد

من الحرب ذليلا برجل مقطوعة، لم يجد أحدا يهتم به وينفق عليه لهذا الحال المزري.. حتى الدولة التي أرسلته إلى الحرب، تخلت عنه بعد إصابته البليغة، فحاول أن يشحذ على زاوية رصيف..

وبعد يوم فوجئ برجْل تركله بقوة، ثم عدة أرجل تقذفه بعيدا.. فهم من المهاجمين المتعاونين حتى مع شرطة المدينة ضده أن الشوارع ليست فالتة، وأنها محمية من مؤسة خاصة بالشحاذين، فاضطرللخضوع لأوامرالمؤسة الخفية التي تدير الشحاذة في المدينة..

كنت أفكر بذاك العسكري المحطم فيوكومبي، وأقارنه بهذا الهربيد المحطم، بينما كان صاحبي يواصل سرده عن «عصابة الخاوة» بقوله:

قال لي ثالثهم الذي تحول إلى ودود هذه المرة:

«يا رجل إخزي الشيطان، وفكر في مصلحتك.. غدا لو ذهبت لتبول خلف العمارة، فسوف تعود لتجدهم سرقوا لك البالة كلها، «ادفع بالتي هي أحسن.» وسوف تجد هذا الرجل الشهم «أبو شبرية» يقف معك في كل ضيق.. ويبعد عنك حتى مخالفات البلدية.. ادفع البلاء عنك، فستجد لك ظهرا يحميك، وأنت تعرف أن (الذي ليس له ظهر، يضربونه على بطنه).»

كلام كثير امتزج في ذاتي مع تدافع بين الرقة والرعونة

والعنف، وفي النهاية قبلت الغلب على قلبي، ووافقت على دفع ربع دينارکل يوم.. صرت أدفعها له.. ولكنني بقيت أعيش الغصة، كلما شاهدت ذلك المخلوق الدافئ الشرس»أبو شبرية»..

أنا بصراحة أستطيع ذبحه جهارا نهارا، وعندي القوة الكافية لذلك، ولكنني لا أخفي عليك.. لا أريد أن أوجه مسيرة حياتي لمذابح مع قبضايات الخاوة، وسجون، فوق السجن الذي أنا فيه.. وهات بعدها صلح عشائري ودخالات، وجاهات، وعطوات.. «وكل ما هو آت آتْ».

كان هذا من أسباب موافقتي على العودة لانضواء تحت مظلة الجبالي، بصفته حوتا يتصرف في هذه الأمور بطريقته الخاصة. إذ قال لي:

«تعال لتمسك لي المبيعات، وتنشط فيها كما تشاء.. فلقد عرفتك أمينا صادقا نشيطا محبوبا بين الزبائن وتجارالمفرق.. »

****

شعرت أن الهربيد الطيب يستأنس بي، فيتخلص من فضلات مخه، وذلك بسردها لي، إذ أنه أكمل لي هذه الليلة ما كان قد بدأه في الليالي السابقة، فقال:

«بضاعة البالة صارت تستأسد بقوة الطلب عليها في هذه السنوات العجفاء، حيث القوة الشرائية متزايدة من قبل النازحين الجدد من شرق فلسطين، إلى شرق الأردن، خاصة

لمن لديه عائلة حطماء، وأسرة تأكل الحجارة، وتمنى احتضان قميص أو حذاء، بصفته أشهى من احتضان عاشق لمعشوقته.. فمن شدة الفاقة والفقر، تجد الناس تستر عريها بملابس البالة.. تسلح بهذه المعطيات الغربية الفا.. خرة!»

ضحكت على صفة الملابس هذه، والتي لم تخطر لي على بال.. فقلت له:

«من فوائد الحرب التي يشنها الغرب علينا، أن يجدوا مستهلكين لملابسهم البالية هذه التي تقول عنها إنها فا.. خرة.... فبدل أن يدفنوا ملابس موتاهم أو مرضاهم في الزبالة، فتلوث البيئة، تجدهم يجمعونها من مراكزالصليب الأحمر، والكنائس، والبلديات، والمستشفيات، والمتاجر، والبيوت، ويصدرونها لنا بصفتنا خيرمستهلك لخيراتهم هذه !»

«لا أخفيك يا دكتور أنني وجدت نفسي أعمل في البالة مضطرا، وذلك لأبقى.. مجرد البقاء حيا. ولهذا وافقت على العمل لدى الجبالي بعد طول عذاب في وحشة وحدتي، ومن هذا اليوم، نجحت أيما نجاح.. هو الرجل لمن يعرفه من الداخل كحتة ولا يدفع القرش إلا بطلوع الروح، ولا يريدني حبا بي، بل خوفا من أن أعمل لدى تاجر آخر منافس له، فتضاعف مبيعات الآخر..

أنا أعرف أن أجوري التي وعدني بها لا تعادل شيئا من زيادة

المبيعات التي أعملها له، وهي أقل بكثير مما أستحق، ولكنني على كل حال، لا أنتظرالغنى من وراء هذا العمل المؤقت.»

وخلال وقت السهرة المتاح لنا، توسع الهربيد في تفاصيل الحديث، وأسرارالمهنة قائلا إن معلمه الجبالي رفع الأسعارهذه الأيام، وصاريبيع البالة مختومة لتجارالمفرق بأحد عشردينارا، بدل العشرة دنانيرالتي كان صغارالتجاريشكون ارتفاع سعرها. ولكنهم ليسوا مغفلين، فأقلهم حنكة صار يبيعها خلال ثلاثة أيام بحوالي أربعين دينارا، ويعود ليسدد الأحد عشر السابقة، ويشتري بالة جديدة بالدين كالعادة.. والجبالي لا يزعل من الدين، بل يرغب فيه، وهويكتفي بأن يأخذ منهم الدين السابق، ويعطيهم بدين لاحق، وأحيانا يتراكم على أحدهم دينٌ مكسور على دين. سألته ذات يوم، كيف تعطيهم دينا فوق دين؟ فقال:

«أنا يا عمي أحي الدين بالدين» مضطرا لأن أبقي هؤلاء الغلابى مربوطين بي، وإلا هربوا، وبحثوا عن «حوت بالة» آخر، منافس لي في السوق.. » انتبهت إلى عبارة «حوت بالة».. يبدو أن هذه التجارة تبرز «حيتانا» تسبح مسافات طويلة، حتى في الصحراء.. بينما واصل الهربيد حديثه قائلا:

«أبو نجيب رجل صاحي وذكي. وحسب ما فهمت، فهو لا يتوانى عن رهن بيت أحدهم، أوصيغة ذهب زوجته، لحين سداد الدين. وهو في الوقت نفسه يجعله يوقع كمبيالات بأضعاف

المبلغ حتى تبقى رجله مربوطة بمحلات المعلم.. .الرجل داهية، ويخشى منه، ولا يخشى عليه.. ثم إنه يكسب منهم بالهبل.. إنهم مزاريب ذهب تهر عليه، ولهذا فهو يتغاضى عن ظروفهم الصعبة.. وبالمقابل تجدهم يحبونه، ويلتجئون إليه في الملمات.

وإذا تضايق - لا سمح الله - ووقع في قضية نصب واحتيال من أحد زعران البالة، تجده يستعين ب»عصابة الخاوة» التي تقبض الأتاوات من تجار شارعنا إياه، ويتركهم يتصرفون مع التاجر الهلفوت التي تطاول على سيده أبو نجيب الجبالي، فيجلبون من الهلفوت «الحق حقين»؛ حقٌ له، وحق يأخذونه لهم، فلا يجرؤ ابن زانية بعد ذلك أن يفتح عينه في وجه الرجل الهيبة؛ أبو نجيب الجبالي .. وكان الله بالسرعليما.»

سألته عن كيفية معاملته المالية معه، فقال:

«عندما وعدني بدفع الثلاثين دينارا في نهاية هذا الأسبوع، وهو أعلى مبلغ يحصل عليه أجير في سوق بالة قاع البلد كلها. قال لي:

«لوعملت يا هربيد في أية وظيفة حكومية، لما وصل راتبك إلى ثلث هذا المبلغ في أحسن الظروف»

«التوفير؟»

«صفر.. فأنا أقبض من هنا، وأصرف من هنا.. حياتي هنا مجرد «قبض وصرف» يا دكتور. جنزير دبابة يأتي ويروح،

فتحرك الدبابة.. وإذا كان قرشك الأبيض ليومك الأسود، فليس أمامي أسود من هذه الأيام!»
فهمت من كلامه أن تدافع معطيات الحياة يتحكم به، فيسيره كما يريد؛ ويضطره لأن يكون لامباليا بشيء، سوى ممارستها بشكل عمل يحقق له الأكل والشرب والسكْر والنوم فقط.. إنه يسكركي يتخدر، ليتحمل آلام الحياة التي لا يريدها.. يتصرف وكأنه يعيش هنا مؤقتا.. يتحفز ويحضر نفسه، وكأنه مسافربعد أسبوع..
إلى أين؟ فأنا لا أعرف.

اليوم السابع.

وبصفته قد تعين كموظف رسمي عند الجبالي، دعاني الهربيد ليلة أمس لزيارته في يوم غد؛ الجمعة في «محلات الجبالي» في سوق البالة»..

قبلت الدعوة، لأتعرف على عالم آخر، لم يسبق لي أن دخلته، واتفقنا أن يكون ذلك بعد صلاة يوم غد؛ الجمعة، في المسجد الحسيني الكبير، القابع على بعد خطوتين من فندقنا العتيد.

وصلت إلى المسجد مبكرا، وذلك قبل الأذان الأول، واعتلاء الإمام منصة الخطبة، واقتربت منه وحيته وقلت له أنني طالب جامعي أزهري، بدون أن أوضح تخصصي في الطب، وطلبت منه أن يوضح في خطبته التي يقولها قبل كل صلاة:

«سووا صفوفكم واستقيموا.» أن ليست صفوف الأرجل فقط هي التي يجب أن يهتم بها كل مصل، وإنما هي قبل ذلك تسوية الأحذية وتخزينها بأرقام في خزائن خاصة بمدخل المسجد، يشرف عليها خادم للمسجد، ولا مانع أن يتقاضى على الواحدة منها قرشا أو قرشين.. وذلك لسهولة التعرف عليها عند الخروج، ولعدم سرقة إحداها بينما المصلون ساجدين، وهذا التخزين شاهدته يحصل في جامع الأزهر الشريف، وفي الجامع الحسيني الكبير في القاهرة، وقلت له؛ إن الأهم من تسوية الأقدام، هي تسوية صفوف المسلمين في كل مكان، سواء في انتظار حافلات النقل العام، أو انتظار سيارات الأجرة العامة في الموقف، أو في توقيف سيارات المصلين وقوفا مزدوجا أو غير قانوني، لدرجة تعطل حركة المرور في الشارع العام، أو تسوية الصفوف في أي مكان يتطلب صفا، أو انتظارا للدور، فعلينا نحن الذين لا نلتزم بصف، أن نسوي صفوفنا.وطلبت منه أن يولي هذه المسألة اهتماما خاصا، وكم تمنيت لو كانت خطبة الجمعة هذا اليوم حول هذا الموضوع وحده، بدل أن يقضيها في الحديث عن السلف والسلفيين..

وافق الإمام على طلبي مشكورا، بدون مناقشة.. ولكن المؤسف أنه خطب وأنهى خطبته، ولم يذكر هذه المسألة أبدا.. وقبل أن نخرج من المسجد، ركضت خلفه، فوصلته وهو يلبس

حذاءه المحفوظ في مكان خاص عند باب المسجد، وسألته؛ لماذا لم يذكرما طلبت منه، فاعتذربكون الخطبة كانت معدة سلفا.

خرجت من المسجد باتجاه سوق الهربيد.. أقصد سوق الجبالي.. كنت أرى أن الإسلام يحض على الاستقامة في التصرف، والعدل باستقامة الحكم، والتصرف في البيت ومع الأسرة باستقامة، كما يعامل الواحد نفسه.. هكذا يفهم الإسلام الاستقامة، وليست استقامة أصابع الأقدام وحدها..

رحت أبحث في شوارع سوق البالة عن محلات الجبالي إذ لم يسبق لي أن زرت سوق ملابس مستعملة كهذا.. لا شك أن معظم كتبي الثقافية التي اشتريتها منذ سنتي الأزهرية الجامعية الأولى، وحتى اليوم، كانت مستعملة من سوق «سور الأزبكية» القاهري ومنها؛ «ألف ليلة وليلة»، كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني، «تفسير ابن كثير» للقرآن الكريم.. كتاب «الحمقى والمغفلين» للفقيه الإسلامي ابن الجوزي، الذي حفظ القرآن وعمره تسع سنوات. مسرحيات سوفوكليس، وشكسبير. موليير.. كتاب «رأس المال» لماركس.. وكتب كثيرة لا حصر لها.. كلها كانت من سوق البالة للكتاب.. ولكنني لم أدخل سوق بالة ملابس حتى الآن، وذلك لشعوري النفسي أنني شاب جامعي وابن خيرات الخليل، ولا ألبس إلا ملابس آخر طراز، وبدلات جوخ كنت أفصلها لدى مخيطة عماد الهشلمون، أشهر خياط

بدلات في الخليل، وذلك قرب سوق الخضار المركزي، فيأخذ الرجل الصامت الفم، الأشيب، النحيل الجسم، مقاساتي طولا وعرضا وخصرا، وذراعا وساقا.. ثم ينجز لي أفخم بدلة يخيطها خياط.. كان يختار بطانتها من الساتان الأحمر المدهش ليسر من يرى.. وأما عالم البالة فلم أكن أعلم عنه شيئا. أيام خيرات، لا أعرف كيف داهمنا الاحتلال وأطفأ أنوارها.

وصلت يا حبيبي إلى سوق البالة بعد الصلاة.. شعرت بين هذا العالم المستعمل، وكأنني في مولد.. وكأن الناس كلهم قد خرجوا من بيوتهم وتركوا أعمالهم ليتجمعوا في هذا السوق العظيم.. كنت أتجول على طول شارع مستشفى الطلياني وتفرعاته، وعلى العرائش المنتشرة على ضفاف السيل. أسير باتجاه موقعه وأنا أقارن بينه وبين ضفاف نهر النيل العظيم.. الفرق شاسع، ولا مجال للمقارنة.. «يا للهول!»، كما قال يوسف وهبي.

أجدني أفكر بيوم الجمعة هذا وأنا أسير نحو الهربيد.. كل الناس يباركون بهذا اليوم الفضيل، هكذا يقولون عن يوم الجمعة أنه «جمعة مباركة».. لست مقتنعا بهذه الصفة، ذلك لأن الأيام كلها مباركة، وأن الله هو الوقت، الله هو الدهر، هو الزمان، «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر.» كل الزمان، وليس يوم الجمعة وحده.. فهل الله جل جلاله، يوم الجمعة،

أكثر بركة منه في باقي الأيام؟ لا أعرف لماذا يباركون هذا اليوم وحده.. فليباركوا مثلا يوم الاثنين، لأن الرسول ولد يوم الاثنين، تبدو معقولة.. . والأصح حسب وجهة نظري أن يباركوا كل يوم يعملون فيه عملا طيبا.. كل يوم يصادفون فيه ذكرى جميلة في حيواتهم.. ذكرى اختراع أول سيارة.. ذكرى انطلاق أول صاروخ علمي إلى الفضاء، تيمنا بقوله تعالى: «وإن استطعتم أن تنفذوا من أبواب السماء والأرض، فانفذوا.. «عندنا لا يريدون أن ينفذوا إلا في ثقوب الحور العين.. وكلهم يجمعون على الدعوى لله أن يرزقهم ويحميهم.. تجدهم لا يفعلون شيئا غير الدعاء.. أذكرهم بقوله تعالى: «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم.. «نحن لا نعمل.. نحن نكتفي بالدعاء.. تجد الدرويش يدعو ويطلب ويطلب ويطلب مليون طلب من الله وهو يبكي.. طيب.. إذا كنت تبكي أو تباكى وأنت القدوة.. القائد، فكيف تكون أحوال جموع المسلمين.. أمة من الندابين البكائين..

«يا سلام، يا سلام، من هذه الآلام.. يا خفي الألطاف، احمنا مما نخاف.»

ما هذه الأمة المهزومة المستضعفة الخائفة، التي تنتظر أن يسقط الله عليها المن والسلوى من السماء «.. أمة لا تعمل.. أمة لا تخترع مضخة.. لا تخترع سيارة.. لا تخترع هاتفا.. أمة لا تصنع نكاشة أسنان. ما هذه الأمة التي لا يسترعريها - إذ أمرالله

بالستر- سوى الملابس البالية.. ملابس البالة ؟

هل سموها بالة، لأنها نوع من البلاء الذي يحل علينا؟ أم لأنها تحوي الملابس والأشياء البالية؟ أم توسما برقصات الباليه ذات الملابس المتلاشية، أم تيمنا بمنتجات شركة بالي للأحذية والملبوسات، أم مشتقة من كلمة (بيل) الإنجليزية، التي تعني شاحب، أو باهت، أو عتيق، أم إلى «جزيرة بالي» الأندونيسية التي يقولون إنها ساحرة الجمال، أم إلى (باليرمو) الإيطالية، إذ أن البضاعة الإيطالية المستعملة هي الساتر الفعلي لأجسادنا المطالبة بالسترالإلهي؟

الأغراض التي يشتهيها كل محتاج، تجدها هنا.. سوق "لحوم السقط" تجده مكتظا برؤوس وكرش وأقدام غنم وماعزوأبقار، وحتى الجمال.. أسير بين هذه "السواقط" وكأنني أفتش حرس الشرف وأنا أتفحص بنظري في طريقي؛ سوق خاصة للأرانب البلدية، وسوق مجاورة للدجاج البلدي الملون، وفي الدخلة الأخرى سوق للحمام العاشق، يسمونه «حمام كشاش» بحيث يكش الذكر كل الحمامات الساقطة في المنطقة، ويختطفهن، ويجلبهن إلى بيت «المتسقط».. وهذه الدخلة مكتوب عليها «سوق الحرامية».. كثير من المسروقات تباع هنا بسعر رخيص في هذا الشارع..

عالم آخر يا أخي! محال تبيع الأشياء القديمة.. سوق

كراسي قش وأدوات قديمة.. سوق متخصصة بلوازم البيادر والقمح، هذه جاروشة، لوح دراس قش القمح.. شاعوب.. مذراة خاصة ببيادرالقمح.. دكاكين لوازم بيطرية .. مواد بناء.. دكاكين أسلحة.. مختلف أنواع الأسلحة الشخصية.. أسواق متجمعة، كل بتخص في هذه الشوارع والأزقة، بسطات وسط الطريق خصوصا يوم «سوق الجمعة»، أقبية تحت الأرض، وأدراج خشبية تهتز تحت أقدام الصاعدين والهابطين، وكلها تغص بالألبسة الغربية المستعملة ›البالة‹‹.. فأي سر وراء انتشارها أولا؟ وأي الأسرار وراء إقبال المستهلك عليها ثانيا.

فعلا يا رجل.. تسيرهنا بين الناس، فتشم رائحة النفتالين والفليت الذي قد يحمي الملابس من العث.. تذكرت إعلانا ضخما مكتوبا على طول عمارة طويلة جدا في وسط القاهرة، قريبة من عمارة "جامعة الدول العربية" يقول:

(هل رشيتي فيليت النهارده؟)

هناك تحس بمتعة البحث عن الأشياء القديمة.

كنت أسمع رجل (الروبابيكيا) المتجول في شارع المبتديان والشوارع المتفرعة منه في منطقة السيدة زينب- منطقة سكني- يصيح بأعلى صوته: (روبيكيا.. بيكيا.. بيك.. روبابيييك)، هكذا يدلع الأشياء المستعملة ويشخلعها.. تجده يتوقف عند

امرأة، تعرض عليه بيعه بضعة أواني نحاسية قديمة.. تدعوه لمشاهدتها في البيت، أو تحضرها محمولة بين يديها إذا كان حملها سهلا .. تضعها على عربته الواقفة أمام الباب.. خلخال.. سجادة عجمي نادرة الوجود.. (جرامفون قديم رائع البوق النحاسي) يسمونه الحاكي، مكتبا فخما كان لزوجها المتوفى، أو كتب مكتبته التي لم تعد لها حاجة بها.. تجدها تلاغيه وتقول له:

" كان زوجي مضيعا أيامه بين هذه الكتب التي لا تنفعنا.. ليته كان يفكر بعمل يجلب لنا الفلوس.. كان طوال النهار يقرأ كتبا، ويكتب كتبا لا تجيب لنا ثمن الورق الفارغ."

تجد البائع المتجول يشتري هذه الأشياء برخص التراب، فيعرضها في يوم الأحد أو الخميس في المزاد العلني الكائن في معرضه الصغيرفي الحارة، الخاص بالروبابيكيا.. هو ليس سوقا يغطي حيا بكامله.. بل مجرد دكان على ناصية الشارع، يتجمهر أمامه عدد من الناس يوم المزاد المعلوم للمنطقة كلها.. ويتوقف عنده مار الطريق بالصدفة .. في ذاك السوق قد تجد أشياء تحتاجها.. تحف قديمة، ملابس مستعملة، من الصعب أن تلاقيها جديدة.

ها هو الهربيد.. وجدته في موقعه الذي حدده لي أمام معرض الجبالي.. بالفعل يا أخي.. شكله في وسط السوق مثل طرزان في فيلم "طرزان في بلاد الأدغال".

ابتهج لقدومي، فرحب بي واستبشر.. كان وجهه بشوشا، وحركته نشيطة، وكأنه "يريد أن يقطع نفسه ويقدمها لي"- هكذا نقولها باللهجة العامة- وبسرعة قدمني إلى أبو نجيب الجبالي1 ، صاحب المعرض.

"أعرفك على صديقي الدكتور سامي الناظر، زميلي في السكن.. " هكذا قالها بتفاخر. أحرجني بتضخيم مهنتي، وتحقير مسكني.

وعندما عرف أبو نجيب بكوني دكتورا، دعاني للجلوس معه عند باب المعرض، الذي يبيع بالقطعة خارج المحل، ولكنه في الداخل يكدس البالات لتجارالجملة.. "

سألني الرجل بضعة أسئلة، فأوضحت له أنني ما زلت طالبا جامعيا، في السنة الثانية، طب الأزهر، وأنني خليلي الأصل والفصل، فتهللت أساريره، وشعربانتمائي له، أو بانتمائنا كلينا للخليل، التي حسبما قرأت في الكتب التي تحدث عن الكنعانين، أنه كان في ذلك الزمان ملكٌ على مدينة تضم أربع ممالك قروية، فسموها "أربع" ولكن قرارا حديثا صدر، على أن تسمى مدينة الخليل، نسبة إلى ملكها خليل..

أقنعني التفسير، كما كنت أتفهم تسمية مدينة لينينغراد

1-المؤلف يبسط اللغة، فيكتب الكنية(أبو فلان) كما تلفظ اجتماعيا.. وليس (أبا أو أبي).

باسم لينين، ومدينة واشنطن باسم جورج واشنطن، ومدينة باريس باسم باريس أمير طروادة الذي عشقته هيلين أميرة اسبرطة وزوجة الملك مينلاوس، وبعد حرب طروادة التاريخية المذهلة بين الغرب المدجج بالسلاح، والشرق المكتنز بالحضارة، عادت بانتصارها المدوي، لتوج ملكة شهيرة بذاك النكاح العظيم..

هذه القصص قرأتها في كتاب الإلياذة والأوديسة وغيره من كتب البالة المصرية في "سوق الأزبكية"..

استقبلني الرجل باحترام دافىء، نظرا لأننا طلعنا (بلديات)، من بلدتين متجاورتين هناك. وفورا طلب لي كأس شاي مخصوص، قائلا لنادل يدور على شريبة هذه الزاوية التجارية وعلى ذراعه الأيمن صينية فيها كؤوس شاي وفناجين قهوة، وغلاية قهوة نحاسية صغيرة، ضيقة الفم، شكله أسمر اللون، أشيب الشعرالملبد، قليل القامة، باسم الوجه المحزون، يسيربحجم قلم رصاص:

"كاستين شاي على كيف كيفك." فصاح النادل المشدود على نحول جسمه، بصوت أعلى من طوله بكثير، باتجاه ركن القهوة المحشور ضئيلا في زاوية الشارع الأقرب للمحل:

"وعندك اثنين شاي مخصوص لكبير المعلمين أبو نجيييب."

وراح يفخم قيمة الرجل قائلا بكلام ممطوط:

(منين نْجيب واحد قبضاي مثل أبو نجيييياب!) ابتسم أبو نجيب على هذا الإطراء، وقال له:

(والله يا نص نصيص ما انت قليل!) فانشرح صدر نص نصيص وهو يبتعد عنا بمريلته القهوجية الواسعة الصدر نحو زبائن آخرين، بينما راح الجبالي يحدثني عن الخليل، وعن معرشات كروم العنب التي تغطي الجبال والوديان، فتغطي هي بدورها البغال التي تحرث تحتها، وراح يتغزل بالعنطبيخ، يا حبيبي، والملبن، والتين، والخوخ، وخيرات الله، التي حرمنا الأعداء منها.. .

ذكرلي وهويضحك كيف أن أهل الخليل يرسلون الضيف إلى حديقة العنب والتين قبل الغداء، فيأكل الضيف من ذلك التين الذي ينقط عسلا.. ويستمربالأكل حتى يصيح ابن صاحب البيت، المرافق للضيف:

"يا أبي.. صارالضيف يقشرالتين." فيقول له الأب:

"إذن هاته. قل له: الغداء جاهز" فأعلق بقولي:

" يقولون إن هذا بخل من الخلايلة، الذين لا يريدون للضيف الجائع أن يلتهم أطعمتهم، فيرسلونه إلى الكرم، ليشبع عنبا وتينا مجانا، ولكنهم لا يدركون أن القرآن الكريم يقول: "وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون.» معنى ذلك أن

الخليلي يطبق تعاليم الله عز وجل، بأن الفاكهة التي يتخيرها الضيف تكون قبل الطعام واللحوم، وهذا هو الصحيح حسب معلومات الصحة التي كتبها الدكتور صبري القباني في كتابه الصحي الهام؛ «الغذاء لا الدواء».

«الحقيقة أن الخليلي يكون أكثر كرما عندما يرسل ضيفه ليأكل العنب والتين الطازج عن أمه؛ الشجرة، ذلك لأن الفاكهة الخليلية من حقولنا هي أغلى ثمنا من الطعام، لونحسبها بدقة.»

يشعر أبو نجيب الجبالي أنه أمام شاب أزهري خليلي يقرأ عليه القرآن في الحوار، فيتحول من معلم خبير بالة رفيع المقام، إلى «محاور؛ رجل لرجل»، ولا أقول إلى «متعلم» رغم أنه أنه قال لي أنه ترك المدرسة من الصف الرابع الابتدائي، ولكنه منذ صغره كان يقف أمام أحد بوابات القدس القديمة، وذلك طيلة أيام الأسبوع، فاردا لوازم بسيطة فوق قطعة قماش كان قد أخذها من أمه، ليعتبرها بسطة أرضية، فيبيع عليها المقصات، والسكاكين، والملاعق، وملاقط الغسيل، وكاسات الشاي، وفناجين القهوة، وإلى ما دون ذلك من مواد يسمونها خردوات، فكان يصيح بأعلى صوته أمام زوار المسجد الأقصى، سواء الداخلين منهم أو المغادرين: «كل قطعة بقرش.. » «كل قطعة بقرش.. .»

«كل قطعة بقرش.. »

«نقي يا محترم بقرش.. »

«أي شيء بقرش.» ومما قاله؛ كان أبي الحاج نايف الجبالي رحمه الله يقول لي: «اشتر بقرش، وبع بقرش، وبين القرش والقرش يفتح الله.» وبالفعل جلبت لي تلك التجارة البسيطة فوائد جمة، وعرفتني على شخصيات تجارية كبيرة.

وهكذا ازداد دفء الحديث بيننا، رغم انشغالاته الكثيرة. وراح يعبرعن وجهة نظره في هذه الحياة.. .

سألته عن رضاه على الهربيد، فقال: «صاحبك الهربيد هذا رجل جدع، وبياع يعجبك.. الزبائن المشترون يتكاثرون حوله، لأسلوبه الجميل باستقطابهم.. «يضحك وهو يتابع قوله: «وخاصة السيدات يا حبيبي، تجدهن مثل الفراشات الملونة التي ترفرف فوق حقل زهور .. وكذلك التجار الذين يحبوه، ويثقون به وهو يسلمهم كل بالة ولا أختها، وحتى علاقاته معهم يا دكتور فهي قوية من زمان.. هو طيب وبسيط مع الناس كلهم، سواء كانوا فقراء، أو من الناس الدفيعة، والسوبردفيعة.. شعاره؛ «لكل زبون طلبه، ولازم نرضيه يا حاج». ولكن يبدو أنه مكتئب ومكسور الخاطر. كان الله في عونه.

****

وبينما نحن نتبادل الذكريات الخليلبية، والنكات، يقول لي: «رجل خليلي تقي واقتصادي، طلع له في الجنة قصران، فباع قصرا، وأجر الثاني، وسكن في النار مجانا. «فنقهقه ضاحكين، جاء شاب، واقترب من الحاج أبونجيب، وسلم عليه معرفا على اسمه؛ خلدون الحلبي، بصفته صحافيا في جريدة الدستور، ويريد نشرتقريرعن سوق البالة.

قمت لأترك المكان للصحافي ليحادثه بحرية، واتجهت نحو جاري العتيد؛ الهربيد، الذي قال لي؛ «إن هذه السوق وما فيها من ملابس تناسب معظم الناس.. «توقف عن شرحه لي، وأدار وجهه تجاه سيدة تخرج من سيارتها الفارهة، ثم عاد بوجهه نحوي قائلا:

«انظر إلى هذه السيدة الشقراء، التي تنزل من سيارتها المرسيدس الفخمة، بقامتها الطويلة وخصرها الضيق، وهي تضع نظارات عريضة حتى لا يتعرف عليها أحد من الجيران أو المعارف. لاحظ أنها امرأة ثرية، ترتدي أفخم الملابس.. أعرفها كزبونة عندي منذ فترة.. لا تستغرب، فالأغنياء يزاحمون الفقراء، حتى على ملابس البالة.. لاحظ أنها لا تحضر السائق معها، أو أي واحدة من صديقاتها أو جاراتها، حتى لا تعرف غيرها مصدرملابسها.. يا سيدي (خلي بياعين البالة يشتغلوا)!»

تركني الملعون وتوجه لملاقاتها:

«أهلا، أهلا يا مدام.. شرفتينا يا مدام.. » أشم شذى هذه المرأة من بعيد، إذ تنبعث منها رائحة عطر أنثوية مثيرة، تصل إلى أنفي الشمام، أجدها تقترب من الملعون، الهربيد، وليس من الحاج الجبالي صاحب البالة، فتصافحه بحرارة، بصفته فحلا يلفت أنظار السيدات، تنظر إليه باشتهاء وهي تقرب وجهها من وجهه، فتكلمه بالإشارة.. سمعت الفارس يقول لها:

«حسب ما كلمتني بالهاتف، عرفت طلبك يا مدام. سأعرض عليك ملابس أخفيها عن الأنظار.. ملابس للسيدات الأكابر فقط. أنا لا أعرضها على البسطة.. رغم أن كثيرا من نساء الأكابر فوقفوق يطلبنها، ولكن أنت عندي أهم طبعا.. تصوري أن واحدة منهن؛ زوجها صاحب مستشفى، وليس مدير مستشفى.. وواحدة زوجها مقاول كبير.. أي والله، مقاول كبير كبير، وواحدة لا أريد أنأن أقول لك من هي.» وبينما هويحدثها، أخذها معه إلى داخل المحل، وراح يفتح بضاعته ويعرضها عليها. اقتربت من باب المحل لأشاهد كيفية حوارالبيع.

«هذا الطقم النسائي جوخ إنجليزي شتوي يجنن يا مدام، بثمانية دنانير.. وهذه تنورة قصيرة على الموضة.. حرير فرنسي ساحر. بسبعة دنانير. وهذا حذاء إيطالي مذهل على قد مقاس رجلك.. 37».. تبتسم المرأة فرحة، وهي تحدق في وجهه، على كونه يحفظ مقاس رجلها.

«حفظته لك مخصوص يا مدام، حسبما أوصيتني. بستة دنانير فقط. كيف ترينه؟» تواصل المرأة النظر إليه بعين معجبة، وبالعين الأخرى إلى القطعة، مبهورة بها..

«ولكن أسعارك غالية يا هربيد.. » المرأة الأكابرية تعرف اسمه أيضا. ولكنه لا يذكراسمها بين الخلق كي لا ينشرغسيلها في السوق. فيقول لها:

«عن الأسعار لا تسألي. هذه الأسعار مجرومة، مراعاة خاصة لك يا مدام.المهم أن تكون القطعة عندي غير موجودة في السوق. بضاعة ثقيلة. كل شيء سعره فيه. الغالي للغالي يا مدام.»

السيدة تضحك بغنج وهي تستعيد تقريب وجهها المجمل من وجهه بنظراتها المشتهية. بينما هو يداعب بضاعته، ولا يشتهي في مثل هذا اللقاء غيرالبيع.

«ولكن البضاعة بضاعة معتبرة .. انظري.. هذه ماركات (شانيل).. (كريستيان ديور.). (سانت لورين).. شوفي شوفي.. (أولد نيفي)، (كالفن كلن)، (فالنتينو.). بضاعة غير شكل يا مدام، معقول أنك تلاقي هكذا بضاعة في أفخم محلات البلد؟ وهذه (ألفرد دنر)، وهذه (ناين وست)، (فرزاتشي) يا مدام. » المرأة تعلق حقيبتها النسوية بذراعها الأيسر، كنوع من العرف والعادة التي لا أعرف لها تفسيرا، تحس بيدها اليمنى البضة الغضة، المشوب باطنها بلون زهري، وتقلب ما يعرضه عليها

الهربيد، بأصابعها الرقيقة الرفيعة الطويلة، والمطلية أظافرها بلون أحمر يشبه براعم ورد أحمر ما تزال مغمضة ولم تفتح على نور الشمس، بما ينم ذلك عن إثارة أنثوية، وهي تقول له:

«سآخذها وأقيسها، وإذا لم تكن على مقاسي، سأعود فأبدلها.»

«ولو! طبعا تبدليها مرة وستين مرة. على رأسي من فوق يا مدام. أنت فقط اطلبيني بالهاتف، وأنا أحضر بنفسي لآخذها وأبدلها لك.. ولو.. ! أنت تأمرينني يا مدام.»

تجه المرأة إلى الحاج الجبالي لتدفع ثمنها، فتضع النقود على الطاولة الشبرين، متجاهلة حتى النظر إلى صاحب المعرض، بصفته كبير العمر، قصير القامة المنتفخة، وصاحب رأس شعور أشيب كبير، وهو بدوره يبادلها الشعور نفسه، إذ لا يهمه سوى جمع نقود المبيعات، بينما يجمع الهربيد الملابس المختارة، ويضعها في كيس ورقي كبير، منتظرا أن يرافق السيدة، التي تعود متمايلة بمؤخرتها الناضجة الفلقتين المنفصلتين عن بعضهما، بشق يثير المتابع، وبكعب حذائها العالي، وبجسدها الممشوق، وتنورتها القصيرة إلى ما فوق الركبة بشبر، المجسمة عليها كالقالب، فتشير له مبتسمة، ليرافقها الى سيارتها حاملا البضاعة..

أتخيلهم يقولونها هكذا في مصر: «إنت أشر يا جميل!»

ويقول طالب جامعي مصري شقي معاكس بهذا الصدد:

«إنت أشر يا جميل، واحنا خدامينك.» ولكنه يلعبها هكذا؛

«إنت أشريا جميل، واحنا نلم القشر!» فتتوهنا العبارة، بين (الذي يؤشر، والذي يقشر) بصفتهما تلفظان بنفس الصوت، والهدف مفارقة مضحكة.

ينحني الهربيد وهويأخذ منها المفاتيح، فيصل إلى السيارة، ويفتحها لها، لتنطعج السيدة بنعومة داخل سيارتها الفارهة، بينما هو يضع الملابس بترتيب في مخزن خلفية السيارة، يغلقه بهدوء، ثم يعود فيغلق بابها مودعا.

الملعون ليس قليلا بهذه الحركات.. لا أفهم هل علمته الصحراء هذه اللباقة، أم أن سهرات بيت لحم خلال السنوات العشر التي كان يقضيها مع جعفر الحداد ورفاقه، بما فيها من أحاديث وسكر ولعب ولهو، بصفته شابا صغير العمر، يقع عليه إغواء شديد من الصبايا الجميلات، في بلد معظم شبابها مهاجرون إلى الأمريكتين وأوروبا، هي التي دربته على هذه الذكورة الجاذبة، أم هو جسده الوسيم النادر الشكل، أم هي الغريزة التي تفعل فعلها في المكان المناسب؟

وبعد انطلاق سيارتها اللامعة، وعودته منتصرا بصيد مالي ثمين، أقول له:

«أراك باكيا طيلة الليل في الفندق، بينما أنت هنا دونجوان عاشق تجيد ترويض النمرات!» فقال لي مداعبا: «يا جاري العزيز، لكل مقام مقال. فهل تريدني أن أكون أمام وجهك (الخنشور)، مثلما أكون أمام هذه الحلاوة المهلبية.. ولكن صدقني أن ليس هذا هو المهم.. المهم عندي هو جيبها وليس جسدها. المهم كم تدفع.. ثم إن انحناء الرجل أمام المرأة - يا أزهري- لا يهين كبرياءه، بل يزيده شموخا.» يبتسم وهو يقول لي: «أنت خليك مزهرا في أزهرك المهيب يا حضرة الدكتور!» أترك الهربيد لعمله، وأعود إلى الحاج أبو نجيب الذي وجدته ما يزال يحاور الصحفي الذي يجلس قبالته وهو يسأله قائلا: «يقولون إن هذه الملابس قد تحمل بداخلها جراثيم وامراض جلدية، فما رأيك يا حاج؟»

«أعوذ بالله! لا أمراض ولا شيء.. كله مع الغسيل يسيل يا أستاذ خلدون.»

كان ذكاء منه أن يهتم بالصحفي شخصيا، وأن يؤستذه ويذكره باسم أستاذ خلدون، بعد سماعه اسمه لأول مرة، بهدف أن يحسن الصحفي خطه في كتابة التقريرالذي سينشر؛ فيكون إما فضائح، أو مدائح، في وسائل الإعلام، مع أن كلمة أستاذ لا تجوز إلا لمن يحمل لقب الأستاذية التي تلي رسالة الدكتوراه، وهي تويج للعلوم والدراسة البحثية. صار اليوم

كل شخص عندنا ينادى ب(أستاذ).. مسكينة أبحاث العلوم في بلادنا العربية، إذ ينط عليها كل معتد أثيم. ف»العالم» عندنا هو الشيخ الدرويش، و»العالمة» هي الراقصة..

يبدو أن أبو النجيب يفهم قيمة الإعلام في «تحسين الصورة» أو «تشويهها»، ولهذا يتابع القول:

«ملابس البالة الفخمة نغسلها بمواد معقمة، ونكويها قبلما نعرضها للبيع، فلا يبقى فيها أثر لأية جراثيم معدية، أو أمراض جلدية محتملة من التي يحكون عنها.»

«هل أسعاركم تناسب الفقراء، كما هي مناسبة للأغنياء؟»

«بالنسبة لي أنا اتعامل مع كثير من تجار البالة، ومع الزبائن الأغنياء والفقراء. وكما أن عندي بضاعة؛ القطعة بعشرة قروش، تجد عندي في البالة الملابس الوسط، والملابس السوبر..»

يلتفت الحاج أبو نجيب الجبالي إلى المشترين الذين تكاثروا على الهربيد ومساعده في عصرونية الجمعة، ثم يواصل حديثه مع الصحفي خلدون الذي يسأله قائلا:

"هل أغلب المشترين من الشباب والصبايا أم من كبار السن؟"

"الزبائن غالبا ما تكون من العائلات والصبايا الباحثات

عن اشياء مميزة، لذلك يختار صاحب المحل المميز قطعا مميزة، ليختصر على الذواقة وقتهم. وبعضهم يسأل عن موعد فتح البالات السمان، فتختار الست منها أجمل الثياب والأحذية التي تضاهي بجودتها الملبوسات المستوردة الجديدة.»

«ما هي أكثرالملابس التي عليها طلب في السوق؟»

«الطلب يتركز على ملابس الأطفال بالدرجة الأولى، تليها الملابس النسائية.»

«عند استيرادكم للبضاعة، كيف تأكدون من نوعيتها وهي مختومة؟»

«نحن نتفق على شراء نوعية محددة، ولكن أحيانا كثيرة نفاجأ ببضاعة ملغومة، وقد نجد داخل البضاعة بعد تصنيفها ملابس رثة وأحذية بالية يشوبها عيب أو ذات موديلات لا يلبسها أحد عندنا، فمثلا قد تجد بالة نصفها ربطات عنق، ونصفها أحذية كاوبوي رفيعة البوز كالمنقار الطويل، وبذلك نضطر لبيعها باسعار التراب. مما يوقعنا في خسائر. وأقل حل لهذه المعضلة، هو وقف الاستيراد من أولئك المصدرين النصابين.»

«سامحني بهذا السؤال السخيف.»

«تفضل.. بصفتك صحفي فأنت محصن.»

«هل يأتيكم عروسان خاطبان ليشتريا ملابس مستعملة

لحفل الزواج؟»

«سؤال مضحك.مع احترامي.. عملية الخطوبة كلها تمثيل في تمثيل.. فكيف تريد من العريس الذي يقدم نفسه على أنه البطل الغضنفرالمنقذ، المخلص لعروسه التي تقدم نفسها على أنها بنت الأصول.. كيف يرافق عروسه لتشتري ملابسها من البالة؟ ولكن انتظرقليلا.. سنة واحدة بعد الزواج، تجدهما من أهم زبائن البالة.»

«هل تهدد البالة سوق الخياطين ومصانع الملبوسات الجاهزة، وتجارها؟»

«كل من يتعامل بالملابس يقول إن سوق ›‹البالة‹‹ بشكلها الحالي، لا تشكل تهديدا أو خيارا بديلا عن سوق الملابس الجاهزة، فلجوء الناس إلى هذا السوق، يأتي لرغبتهم الشديدة في اقتناء الأنيق والرخيص في الوقت نفسه، وهو سعرمستحيل مع أسعار ›‹الماركات‹‹ الشهيرة غير المستعملة، مما يجعل سوق ›‹البالة‹‹ خيارا إجباريا.

الليلة السابعة.

في هذه الليلة جاءني مبكرا في حوالي الساعة الثامنة.. كان ينحني متوجعا ويده تضغط على خاصرته، مثل رمح مطعوج.. سألته عن حاله الذي لم يعجبني، فقال:

«أشعر اليوم بمزيد من الألم.. الألم هنا، هنا يا دكتور!» يحدد مكان الألم وهو يشير إلى خاصرته اليمنى، مع عدم القدرة على الضغط عليها..

«هنا، هنا! قالوا لي إنه فتاق، ولكنه يؤلمني بشدة.»

يقولها وهو يتلمس خاصرته، فيشعرني بالألم الذي يتأجج منها.. فهمت منه أنه يعاني من فتق، ربما يكون في الحجاب الحاجز، في منطقة الخاصرة.. قلت له:

«هذا الفتق إصابة غير خطيرة.. اذهب إلى المستشفى،

واعمل عملية رتق للفتق.»

جلس الموجوع على سريره الرفيع، الذي يشبه إحدى الطاولات التي يعرض عليها ملابس البالة. تأوه المسكين متوجعا. سألته عن ظروف فتْقه فقال:

«ألم التمزق هذا ينتابني منذ أن كنت أختنق عذابا وأنا أرى أبي يغرق أمام عيني في ذلك اليم اللعين، ولكنه تطور وازداد وجعه مع الأيام، خاصة بعد اشتداد عذابات العيش، وانهيار حياتي نهائيا، كما تراها. ولكنني لم أتجاهل الألم، بل ذهبت إلى مستشفى الطلياني، القريب من هنا.. دخلت أخور مثل ثور منهار من شدة الألم.. فحصني الطبيب، فأبلغني عن وجود فتق في هذه المنطقة، وأعطاني موعدا لعملية جراحية، قال إنها لرتق الفتق.»

سحب الهربيد نفسا يتحشرج بوجعه، وكأنه يسحبه من خاصرته.. حاول أن يخفي اضطراره للبكاء، لم يستطع مغالبة مشاعره.. راح ينظربذبول إلى أرض الغرفة، ليخفي دموعا نزلت من عينيه.. مسح عرقا يتصبب على وجهه من شدة الألم، ثم قال:

«في الموعد المحدد دخلت غرفة العمليات ممددا على السرير، جامدا، مثل المحنط. آه والله مثل المحنط.» يمخط المتألم بمنديل البالة الذي يحتفظ به في جيبه، ليتقن مخارج

الكلام، ثم يواصل حديثه:

«جاءت ممرضة بلباس الراهبات الأبيض، وعلى وجهها كمامة خاصة بالعمليات، ودخلت تدفع أمامها عربة صغيرة تحمل سكاكين ومشارط ومقصات وأدوات الجراحة كاملة.. وبعد قليل، دخل الطبيب بوجه جاد التعبير لاستلام أدوات جراحته، والبدء بالشرط والمرط، بلا اكتراث لوجعي.

قلت للهربيد: «عليك تقدير مشاكل مهنة الطبيب، فلو توجع مع كل مريض يتألم، لتلفت أعصابه ومات خلال سنة واحدة من عمله.. «واصل الموجوع حديثه:

«عرفته من ملابس العمليات الخضراء، ومن إصدارأمره لرجل أخضرآخريتبعه أن يعطيني بنجا مخدرا عاما، كي لا أشعر بألم الجراحة..

أعطاني المبنج الجرعة المطلوبة، وقال لي:

«عد إلى العشرة.»، فعددت إلى المائة.. فقال الأخصائي للطبيب الأخضر: «لم ينفع معه البنج.»

صدم الطبيب المكمم الوجه، والذي يسخن نفسه لانقضاض علي، فنظرإلي نظرة قلقة، ثم قال للمبنج:

«أعطه البنج رقم اثنين، فلن يعد لأكثرمن اثنين ثلاثة.»

أعطاني يا حبيبي البنج رقم 2وقال لي:

«والآن لن تستطيع أن تصل لأكثرمن رقم ثلاثة.»

عددت للعشرين، للخمسين، وكنت سأستمر في العد إلى المائة ألف..
دهش الطبيب الأخضر، ودهش معه المبنج والممرضة الراهبة. سألني وهو يتفقد اسمي ورقمي، ويقرأ لوحة المعلومات المعلقة على السرير: «هل أنت مدمن على الكحول يا هربيد؟» قلت:
«أنا أشرب، ولا أعرف هل أنا مدمن أم غيرمدمن، ولكنني أشرب لأنسى آلام الحياة، ولولا المشروب لانتحرت، أو نحرت كل من هم حولي، وأطبقت بيدي على هذا الكون الغارق في جحيمه.»
استدارالطبيب نحو المبنج، وأمره بقوله:
«أعطه المخدر رقم 3، وذنبه على جنبه، والآن لن يعد لأكثرمن واحد».
أعطاني البنج رقم 3يا حبيبي، فعددت للمائة.. نظرالطبيب إلي نظرة اشمئزازدونية.. بصراحة، قل نظرة احتقار.. قد تكون ممزوجة بنظرة شفقة على رجل كسير، وبينما كان يفك رباط ثوب الجراحة، قال لي:
«قم. البس ملابسك.. فليس لك عملية.»
قلت له وأنا أستنهض نفسي المخذولة من تمددي على السرير، مثل ذاك «الحبشي الذبيح» الذي نعاه الشاعرابراهيم طوقان: «يا دكتور أرجوك؛ اجرحني، اذبحني من دون بنج،

فأنا أتحمل التقطيع، ولا يهزني الجرح.» فقال وهو يخلع ثوبه الأخضر:

«انتهى. قم وغادر غرفة العمليات.»

«يا دكتور، يهديك، يرضيك، تعمل لي العملية بدون تخدير. أرجوك، أتوسل إليك!»

تمرد الطبيب على غرفة العمليات وهو يشير لي بذراعه إلى باب الغرفة، مثل معلم قاس يطرد تلميذا مزعجا من غرفة الدرس، آمرا إياي:

«اخرج. ليست لك جراحة في هذا المستشفى.»

أي والله. هكذا صرح الطبيب الآمر الناهي.

نظرت يا حبيبي إلى طاولة المشارط والمقصات الممددة إلى جواري، فتناولت منها مشرطا فحلا أبيض لماع النظرات، وفتحت باطن يدي للدكتور، وقلت له:

«يا دكتور، انظر، انظر!» ولكن الدكتور لم يلتفت لهذه الجثة المزورة بمذبحها فوق العربة النقالة، ولم يتوقع أن يرى شيئا من هذه الجثة المخدرة.. إذ كنت عندها قد شرطت كفي من الوريد إلى الوريد.. صدقني، ظهرت عظام كفي بيضاء الشحم في عمق اللحم.. ولحظتها هربت الممرضة الراهبة وهي تصرخ مرتعبة، فالتفت الطبيب لصراخها، فشاهد القطع، وصدمه مشهد المبنج الهارب، بينما المشرط السياف ما يزال

في يدي التي قطعت أختها، وتركتْها تنزف دما، مثلما قطع قابيل عنق أخيه هابيل.
وهكذا بقيت وحدي أنزف من دون بنج، فهرب الطبيب معهم مرتعبا من حالتي النفسية، ومن احتمال هجومي عليهم تشطيبا وتقتيلا، ما دمت سكرانا لا أعي ماذا أفعل.. » أتفهم موقف الهربيد، إذ كنت قد قرأت في رواية عن حالة مدينة عربية مغلوبة على أمرها، من مدن «ألف ليلة وليلة» كان العبد السياف فيها عندما يقطع عددا من الرؤوس في ساحة المسجد الكبيرأمام الجمهور، وذلك ليعتبروا مما يشاهدون، فيسمعون الكلام، ويتبعون ما يؤمرون به، مهما كان جنون الأوامرالصادرة للشعب، فإن دم العبد قد يفور، ولا يعود يميز بين الشرطة والحراس والحضور المشاهدين للمجزرة، فيأخذ بتقطيع رؤوس من يصلهم سيفه.. (يا حدادة، طيحوا الوادي) يمين يسار.. يمين يسار.. حتى تنقع الساحة دماء.. ولهذا كانوا يوقفون عددا من الجنود بأسلحتهم الحية، ليقتلوا العبد السياف إذا فار دمه، فخرج عن مشاعره بتصرف مرعب، أو كان أي من المواطنين الرافضين لهذا الظلم القاتل لمعارضي الحاكم.. .وبينما أنا سارح بتفكيري الروائي، كان الهربيد يتابع سرد قصته:
«لا داعي لطول السيرة، جاء آخران، فبالطول وبالعرض، ضمدا يدي المذبوحة، كما ذبح «حبشي ابراهيم طوقان»، وبينما

هما يخرجاني مطرودا من المستشفى، قال أحدهما لي:
(بسرعةبسرعة.. قبل أن يأتي مندوب الأمن..)
خرجت مدحورا من هناك، تحت تهديد إمكانية اعتقالي من قبل الشرطة إذا زودتها، وذلك بتهمة السكر والعربدة، واستخدام السلاح الأبيض داخل المستشفى، ومحاولة القتل العمد.
ما باليد حيلة.. كنت ملفوفا بمذبحي.. أخرجت من المستشفى يا دكتور مهزوما بجراحي العجيبة، بعدما دخلته بجرح واحد أتأمل الفرج من عند الله.. ولكن يبدو أن الله....
بربك ماذا أصنع؟ «يتلوى الهربيد موجوعا وهو يقول:
«الألم يضعف قامتي الطويلة، وقد كان أبي وأمي وأهلي يسمونني طرزانا ونحن في تلك الربوع الخضراء، وذلك قبل ابتلائي بفتق مفتوح من عدة جوانب، جانب تهجيرنا من وطننا السعيد، وجانب أبي الذي راح أمام عيني في قعر الماء، وجانب بيتنا ومواشينا وأمنا التي تاهت بين التائهين، وجانب خاصرتي التي هي إفرازات كل ما ذكرت، فتهربدت، وعدت إلى اسمي الذي سجلوه على شهادة ميلادي؛ هربيدا، فازداد جنوحي نحوالشرب اليومي المخدرللعذاب.
هي اللعنة تطاردني! عذاب البعد عن الوطن، والتوهان في الغربة، وعذابات كثيرة متلاحقة، كانت السبب في تمزق أنسجة

الخاصرة، لدرجة صرت معها أفقد بعض توازني.. الألم هنا سكين كأنه في الخاصرة.. وأي ألم يكون أكثر وجعا من سكين مستدام في الخاصرة!

وبعد حديث طويل، جعلني أزداد تعاطفا مع هذا الأسد الجريح، ذكر لي الهربيد أنه لحل مشكلته، فسوف يذهب إلى الشيخ محسن لهلوب في جبل النصر، وهو شيخ محترف، ومشهور بإتقانه الكي، بصفة أن «آخرالدواء الكي.».فسألته:

«من هو الشيخ محسن لهلوب هذا، وهل سبق وأن شاهده وهو يكوي أحدا؟»

ضحك من وجعه وقال: «لم أشاهده يفعل، ولكنه حكى لي حكايات كثيرة عن يده المباركة في الكي.»

كان وقت السهرة في بدايته، فقلت له:

«حدثني عن قصة الشيخ لهلوب هذا الذي ستزوره؟» فقال وهو يضع يده على خاصرته وكأنه يواسيها، فيبعد عنها الوجع:

«للشيخ محسن لهلوب حكايات غريبة ليست لها نهاية.. إنه رجل وسيم، طويل ونحيل الجسم، أشقر الوجه واليدين، ويبدو ذا هيبة ووقار. في الخمسين من عمره، يلبس ثوبا أبيض مكويا نظيفا ناعما بملمس الحرير، ويمشط شعر ذقنه الأبيض الطويل الناعم الممسد بمهابة ورونق، ويضع على رأسه حطة

بيضاء بدون عقال، على السنة، تغطي معظم شعره الأشيب الوقور. يا أله، لو تشوفه يا دكتور، لن ترى أبهى من هكذا قوام.

وقصتي معه بدأت عندما مربي ذات يوم في دوشة السوق.. فشدني شكله الناعم الوقور، وهندامه النظيف، وحديثه الهادىء.. قال لي إنه يريد اعتماد محل بالة محترم ليشتري منه ملابس كثيرة لأفراد عائلته، ولجماعته. سألته من هم جماعته؟ فقال لي:

«المريدين.».. فهمت منه أنه شيخ ذو طريقة.. سألني عن اسمي، وقال لي:

«هل تصلي في المسجد يا أستاذ هربيد؟» قلت له:

«طبعا أصلي يوم الجمعة في المسجد، مع الحاج أبونجيب صاحب المعرض.» فقال لي:

«يا أستاذ، «إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا» ولهذا يجب أن تصلي الأوقات الخمسة في المسجد . قلت له:

«لا أستطيع ترك المعرض خمس مرات في اليوم، ذلك لأن بضاعتنا كما ترى معروضة في الشارع، والناس لا رقيب عليها.. «وفي هذا الصدد، يقول تعالى في كتابه الحكيم:

«إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة، فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع.. «وحسب القرآن الكريم، فإن عبارة؛ «ذروا البيع» لم تأت إلا ظهر الجمعة.. وأنا إذا تركت بسطة الملابس هذه

عند كل أذان، فسوف أعود فلا أجدها.. للضرورات أحكام يا سيدنا.»

ومع هذا، أصر الشيخ محسن لهلوب على أن يأخذني معه إلى صلاة المسجد، بينما أصررت على أن أصلي هنا فوق الملابس.. وتركته يذهب وحده..

بعد ساعة عاد الرجل ليتابع التعرف علي، فسألني عن أصلي وفصلي.. قلت له ما قل ولم يدل.. باختصار، اشترى بضعة قطع ملابس، فخفضت له السعر بأقصى ما أستطيع وغادرالبسطة شاكرا.

وهكذا صارالمحترم يتردد على المعرض كل أسبوع، ويحكي لي بعضا من نوادره، ولكنه في كل مرة كان يراجعني بقوله:

«والله يا أخي الهربيد إنك رجل خلوق ومحترم، ولا ينقصك شيء إلا أن تصلي الأوقات الخمسة في المسجد».

ونظرا لكوني لست متبحرا في الدين، خرجت بسرعة من موضوع الحديث، وسألته عن الشرع والزواج والطلاق، فقال لي إنه متزوج من أربع نساء..

كيف حصل هذا؟ ولماذا، ومتى، وأين؟ قال:

«إنني أملك إضافة لبيتي عمارة كبيرة في جبل النصر، كنت قد أجرتها لتكون مدرسة حكومية، تدرس البنات للصف الثالث الإعدادي.. وبصفتي أتابع شؤون العمارة وأتفقد

صيانتها، وأطالب بأجورها الشهرية حسب الاتفاق، فأنا أزور المديرة شهريا.. وفي كل زيارة أتطرق معها من حديث إلى حديث، فأعرف أن الطالبة الفلانية في الصف الثالث الإعدادي فاقدة، وغيرراغبة في الدراسة ولا ما يدرسون، خاصة بعد أن سقطت في صفها سنة، أو سنتين.. وقد تكون تغيب عن المدرسة بدون علم أهلها، ولا إذن من المدرسة.. وقد يكون أهلها فقراء فلا ينفقون عليها.. وقد تكون غبية ولا تريد العلم ولا التعلم، أو قد تكون يتيمة وليس لديها من يتحمل مسؤولية عيشها، أو ليس لديها من يوجهها ويجبرها على أن تستقيم في الدراسة، أو قد تكون لديها مشكلة تجعلها تجنح خارج المدرسة، فأخاف عليها من الجنوح مع شباب قد يكونون شريرين شرسين، لا يخافون الله في هؤلاء المراهقات. وقد تنحرف الطالبة فتسيرها امرأة فاجرة في الفحشاء والمنكر، فتقبض من ورائها الشيء الفلاني، خاصة أولئك البنات اللواتي نضجت أجسادهن مبكرا، ودنت قطوفهن للدخول في دنيا جديدة.. وأنت تعرف أنه لا يفسد المرأة غيرالمرأة.

تفهمت معنى عبارته هذه من مقولة مصرية في حي السيدة في القاهرة؛ «البنت دي عينها زايغة وعايزة تدخل دنيا بأي شكل.» بينما يستمر الهربيد في سرده قائلا أن الشيخ محسن لهلوب قال له: «الدنيا لم يعد لها أمان يا أستاذ هربيد، ولذلك أجدني

أقوم بدوري في عمل الخير.. اللهم اجعلنا من القائمين على عمل الخير.. فأتعرف عليها من داخل مكتب المديرة، وأدعوها إلى الصلاة والدراسة ومواصلة التعلم..

وإذا ما استمرت في كسلها وابتعادها عن الدراسة، فكررت الرسوب في صفها، واضطرت المدرسة لإنذارها بالطرد، كحل نهائي، أعرض عليها أن تذهب إلى بيتي، فقد تجد إحدى زوجاتي الأربع توعيها، وتسمع مشكلتها خارج المدرسة، فقد ترتجع البنت عن غيها، وتسلك في مدرستها وتنجح..

وإذا وصلت بيتنا فاستلمتها زوجتي المحظية، التي أبرمجها شخصيا للتفاهم معها، فتطعمها وتعطيها بعض ملابسها الخارجية، وأحيانا الداخلية إن أمكن.. وعندما أفهم من زوجتي أن البنت ذاهبة إلى الشارع لا محالة، أقول لنفسي:

لا والله، أنا آخذها وأستر عليها، وأحميها من ضباع الطريق، وأجعل زوجتي المحظية تعرض الأمر عليها أولا،، فإذا وافقت البنت، أباشر الحديث معها في الموضوع، وأقول لها بصراحة، ولا حياء في الدين:

«إن التعدد في نكاح الزوجات ليس مسموحا فقط في الدين، وإنما هو أمرمن الله تعالى، إذ يأمرنا بقوله:

«وانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع.. «هناك أمر في الموضوع، وليس عدم ممانعة. فتصمت البنت

باسمة معجبة بأمرالنكاح. وعندها أقوم بواجبي الديني، فأطلبها حسب الشرع من أهلها، الذين كثيرا ما يهدوني إياها هدية، لأنها تكون قد أخرجتهم عن كل المبادىء والأعراف، مثل مهرة شموص، ترفض التطبيع.

وهكذا أتزوجها يا أخي بمهر قليل، متفاهما مع ولي أمرها بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال:

«أقلكن مهرا أكثركن بركة.» وأضيفها إلى زوجاتي السابقات. وإذا كان العدد عندي مكتملا بأربع نساء، فإنني أضع عيني على أسوأ واحدة منهن، وذلك بعد طلقتين سابقتين كنت قد قصفتها بهما لسلوكها المشين، أو المناكف في معظم المناسبات، ووضعتها على قائمة الانتظار، فأطلقها طلقة ثالثة، وأتخلص منها، ثم أتزوج العروس الجميلة الجديدة، على سنة الله ورسوله.

لا يبتسم الشيخ محسن لهلوب وهو يواصل حديثه بكل بساطة وهدوء، قائلا:

«أنا الطلاق عندي يا أستاذ هربيد مثل (السلام عليكم.) أنا صادق معك.. ولكنه يجب أن يكون طلاقا بائنا بينونة كبرى، لا أخالف فيه سنة الله ورسوله، الصادق الأمين.»

كان الهربيد يسرد لي حال الشيخ محسن لهلوب، بينما أنا أفكرفي طرية حله لمشكلة البنت الفاشلة في المدرسة، وطريقة

الستر عليها بحمايتها من التعرض للزنا، بينما نسي الشيخ أن الزوجة التي كانت رابعة، قد تم فضحها بالطلاق. وذلك لقول المسيح عليه السلام:

«من طلق امرأته إلا لعلة الزنا، يجعلها تزني.»

واصل الهربيد قوله:

«أسأل الشيخ عن كيفية عيشه مع نساء أربع، وهل يستطيع إشباعهن، بكل ما تعني هذه الكلمة.» فيقول:

«في الحقيقة أنا لا أجعلهن ينتظرن بالدور.. إذ أنني (ولا حياء في الدين) أضاجع منهن المحظية لدي، التي تسمع الكلام، والتي تطيعني، خاصة التي تغريني منهن، وتجذبني إليها أكثر.»

«ولكن هذا لا يجوز شرعا.. «على أن تعدلوا» وأنت يجب أن تعدل بينهن في النهار، وفي الليل أيضا.»

«أعدل مع التي تنعدل في تصرفاتها معي.. (امشي عدلْ تنْعدل) مع التي تحبني.. مع أجملهن، وأكثرهن إثارة لي. يقول تعالى في كتابه الكريم: «الطيبون للطيبات» فما دامت الزوجة طيبة معي، أكون طيبا معها، وأعطيها أولوية في المضاجعة.. وأما المشاكسة، فأفرض عليها الهجر في المضجع.. فهذا «الهجر في المضاجع» للمخالفات، منصوص عليه في القرآن الكريم.»

«هل المتزوج بنساء أربع، أسعد حالا من المتزوج بامرأة واحدة يا شيخ محسن ؟»

«بصراحة، و(لا حياء في الدين) تكون السعادة والمتعة الجنسية في الأسبوع الأول.. في الشهر الأول من الزواج.. وبعد ذلك تظهر المشاكل، وتثور المشاحنات، ولذلك أهدد المرأة الناشزمنهن، التي لا تطيعني بالطلاق.»

«وإلى أي مدى تستطيع تحمل مشاغبات أطفالهن؟»

فيقول لي بصوت هادىء حالم وقور، وهو يعدل حطته البيضاء فوق رأسه، بعد أن تراجعت قليلا عن غرة شعره الظاهرة ممشطة منسقة بشيب يخطها:

«لا أخفي عليك يا أستاذ هربيد، فأنت صرت من أعز المريدين والتابعين لي؛ كثيرا ما أحتار ماذا أفعل. ولكن كيف تراني أمامك بهذا الهدوء والكلام المحترم؟ » «أراك شيخا وقورا ومحترما جدا.» أمدحه، وأصمت، راغبا في سماع ما سيقوله هذا الشيخ الذي أراه هادئا وقورا أمامي، والذي لا يقول كلمة واحدة غيرمؤدبة لي، أو لغيري من الناس. ويقول إنه لا يخرج على الشرع في شيء، ولكنه يفاجئني بقوله المذهل:

«والله إنني لا أنطق كلمة محترمة واحدة داخل بيتي سواء مع نسائي أو مع أطفالهن المتعاركين!»

ويواصل الشيخ محسن قوله وهو يعدل توازن حطته البيضاء فوق رأسه، ويؤشر بإصبعه الشاهد:

«هل تخيل يا أستاذ هربيد أن أحدا يتمنى المرض؟ والله

إن نسائي يتمنين المرض، فقط ليخرجن من البيت.. تقول لي الواحدة منهن إنها مريضة، وتريد أن تذهب إلى الطبيب.. وبقدرما أنا محافظ، وتقي، وأخاف الله في السراء والضراء، وأحفظ سنة رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام، وأحجر على نسائي، كي لا يتحدثن بأصواتهن الأنثوية المغرية مع أهل الحارة، أو البائعين، أو حتى الأطباء، فلا يتعرضن لمغازلة أو تحرش.. وذلك لقوله تعالى: «فلا تخضعن في القول فيطمع الذي في قلبه مرض.. «رغم كل هذا، هل أستطيع أن أمنعها من زيارة الطبيب؟ أقول لها: «روحي»

تخرج الملعونة، وحياة كتاب الله، مندفعة وهي رافعة رأسها، وتهزه كالفرس الصهيلة، وأنا أعرف أنها غير ذاهبة إلى الطبيب.. ولكن ما باليد حيلة.. هل أستطيع أن أركض خلف كل واحدة منهن فأعرف في أي سرداب اختفت؟ صدق المولى في قوله لهن: «إن كيدكن عظيم» بينما يقول في آية أخرى:» إن كيد الشيطان كان ضعيفا.» وأنت فسرها كما ترى. أسأله باستغراب: «هل تضربهن يا شيخ محسن؟» «أضربهن!؟» يضحك ثم يقول:

«هذا الضرب يعتبر أضعف الإيمان، وذلك لقوله تعالى: «واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا.» صدق الله العظيم. يسكت الشيخ محسن لهلوب قليلا، ثم يكمل بهدوء:

«والله يا صاحبي إنني أسدد اللكمة للواحدة منهن بقبضة يدي القوية هذه التي تراها، على وجهها.» يوجه الشيخ لهلوب قبضته التي تبدو قوية غليظة القلب، مضمومة باتجاة وجهي، وهو يتابع قوله؛ «فترتد يدي عن وجهها مفكوكة، بينما يبقى وجهها صامدا لا يتحرك، وكأنه الطود، بينما عيناها تجحظانني ساخطتين!»

فأتدخل مقاطعا حديث الهربيد: «لو كنت مكانك، لقلت له: حرام عليك يا شيخ.. الدين يقول؛ «ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك، فاعف عنهم واستغفرلهم.. » «قلت له ذلك. فأجاب: «يا رجل العصا من الجنة.» وسألته: هل تميز بينهن في النفقة يا سيدنا الشيخ؟» فأجابني بصوت مرهق: «تقول لك إحداهن: لماذا أعطيت خمسة قروش إلى ابني، بينما أعطيت ابن تلك (الشـ..) عشرة قروش؟ لماذا اشتريت لابن تلك (ال.. .) بنطلونا ولم تشترلابني مثله؟ أقول لها: كلهم أولادي (يا..) تجحظني الواحدة منهن بعين من لهب، وكأنني أنطق كفرا.. تكلم معهن، تصرخ، تضرب، تفقع، تموت، ولكن لا حياة لمن تنادي!»

يضحك الهربيد وهو ويواصل حديثه الغريب قائلا: «يذكرني بهذا الشيخ لهلوب، بائع متجول للخردوات والأدوات المنزلية المستعملة، يتكرر مروره من ساحتي ذاهبا إلى سوق

الخردة القريب من الكنيسة، أو قادما من هناك، اسمه أبو سحبان، أسأله عن حاله، فيحدثني قائلا إنه قد تزوج حتى الآن ست عشرة امرأة.. »

«يا لطيف!»

«أي والله.. ويبرر زواجه بهذا العدد المدمر بقوله: (أنت تعرف أن بيعي كله يتم للحريم.. .وإذا توفرت لي واحدة لقْطة منهن، فإنني لا أوفرها، خاصة إذا كانت مدهنة، ومعها قرشان، أو قطعة أرض محترمة، أو شقة جاهزة كانت لزوجها الميت، وطلبت مني الزواج، فلا أتردد بالموافقة الفورية.. ويا هملالي!). هذه عبارة يرددها أبو سحبان عادة، ويقصد بها: «وأهجم ملهوفا» أو قد يكون التفسير الآخر، كما شرحه لي؛ «يا همي، لالي، أي تلألأ.. أي تبدد وابتهج!»

«ست عشرة امرأة يا مجرم؟» أقول له وأنا أستهجن الرقم، فيقول البائع المتجول وهو يصف عربته على أقصى يمين الشارع لمتابعة قصه: «نعم ست عشرة امرأة، ولكنني أطلقهن، ولا أبقي منهن في ذمتي إلا بما يسمح به الشرع.. على سنة رسول الله، عليه أفضل الصلاة والسلام.»

وأما ذلك الخردواتي أبوسحبان لعنة الله عليه، فهوأزعر ولا يعرف الصلاة ولا الصوم، إلا إذا حشر، فاضطر للصلاة في مناسبة عامة، فهو كما قال لي؛ يصطف مع المصلين بلا وضوء

ولا ما يحزنون، فيقف مع وقوفهم، ويركع مع ركوعهم.. سألته ذات يوم عن حياته مع زوجاته الأربع الصالحات الباقيات لديه فقال:

(عيشة نكد في نكد.. تجد كل واحدة منهن تراقب تحركاتك في البيت، عند من داخل، ومن عند من طالع، لماذا نمت عندها ولم تنم عندي؟ الليلة دوري وليس دورها.. وهكذا يستمرعيشي، فأضطر للخروج من الدار والسعي في مناكبها.. على الأقل أرتاح من رائحة سراويلهن المفطسة، وأتنفس هواء جديدا، وأشتري وأبيع لأنفق عليهن وعلى أولادهن، ورغم كل ذلك تعود فتجد هذه زعلانة، وتلك مناكفة!)

أتذكركل ما قاله لي ذلك الخردواتي أبو سحبان، دون أن أعرف ما إذا كان يمزح معي، فيسرد لي قصا ساخرة، أم إنه جاد صادق بما يقول، ولكنني متأكد من شيء واحد فقط، هو أنه لم يصادفني ابن حرام مثله!

وبينما الهربيد يحدثني عن أوجاعه، سمع مناديا من مكتب استقبال الفندق.. يبدو أنه قد جاءه هاتف من أحد معارفه، فقطع حديثه، وخرج على الفور.. وتركني مستأذنا بدون انتظارمني بالرد.... خرج ولم يعد إلا قبيل أذان الفجر.

الليلة الثامنة.

في هذه الليلة جاءني وهو يضحك، فبادرني بعد السلام بقوله: «إنما حصلت اليوم جريمة كبرى.»

«يا ساتر! ما الذي حصل؟»

«الذي حصل اليوم لا يحكى ولا يتصور.. » «تقول جريمة كبرى، وأنت تضحك.. كيف هذا؟ أخبرني يا رجل! لا تشوقني أكثر من هذا، بأسلوبك السردي العجيب.»

«أنت شاهدت موقعنا في سوق البالة يوم زرتنا أمس الجمعة، وشاهدت بسطة أبو العش الذي يعرض بضاعة بالته مقابلنا على طاولة.. » «لا أذكره بالتحديد»

«يعرض ملابس من أرخص الأنواع، مخصصة لمعدمي الدخل، وإلى جوارها يثبت الملعون عريشة مدعمة بأرجل أربع، يعلق عليها القمصان والبنطلونات والسترات المحمولة على علاقات» يضحك وهو يصفها؛ «تجدها مجسمة مثل هودج

ناقة واقفة بأربع أرجل.. كان في موقعه المنزوي في الزقاق إذا تذكرت.. لم أعرفك عليه، لأنه نكرة.. ونحن كلنا.. يا غافل لك الله.. لا نعرف كيف حصل الذي حصل.. »

قمت عن سريري وأنا أتحفز بقولي: «الذي حصل الذي حصل! هل حصلت جريمة كبرى يا رجل؟»

«صبرك بالله يا دكتور.. في مساء اليوم، وقبل أن ألف بضاعتنا وأغلق محلات الجبالي، فوجئنا يا حبيبي بعدد من شرطة المدينة يحاصرون المكان.. وكبس على زاويتنا أربعة رجال شرطة، توجهوا كلهم نحو بسطة الملعون أبو العش بالذات، وأطبقوا على عريشة الملابس المعلقة.. فأحاطوا بالواجهات الأربع لهودج المحترم، وانقض اثنان منهم داخلين تحت الهودج، مثل انقضاض عنكبوتين فوق شبكتهما على ذبابة مشبوكة على خيوطهما.

وقبل أن تحصل دوشة وغوشة، استلوا لك من تحت العريشة امرأة من تلك النساء الساقطات، ومعها شاب نحيل الجسم أشعث الشعر، وكأنه ذائب في ملابسه الساقط نصفها الأسفل.. شكله مجنون متهور، وعيناه الحولاوان تناكحان.. كان يحاول رفع بنطلونه الساقط، وكانت العاهرة تحاول إعادة توازن لبس كلسونها المعلق على فخذة واحدة، «يضحك وهو يواصل تعليقه:

«لا أعرف كيف استطاع ابن الكلب أن يعملها في هذا الزقاق المكشوف على السماء.. هجمنا أنا وعمك أبو نجيب وكل تجار المنطقة على «وكر الضبع». لم نعرف من هو أحد أولاد الحرام الذي وشى بأبوالعش، الذي اكتشفنا لاحقا أنه كان يدير وكرا حقيرا لممارسة البغاء الرخيص في مكان لا يخطر على بال الأبالسة.

كنت قد سمعت من أحد الأصحاب أن أحد تجار الكار له وكر خاص في الطابق الثاني لمحله، قال إنه في السدة، حيث تستدرجه إليه بعض النساء الباحثات عن مشتريات بدون أن يدفعن ثمنها، ولكن هذا ما لن يسطو عليه أحد، إلا بتدبير استخباراتي دولي، أوقل إنه أصلا عمل فردي يخص صاحبه، ولا يشرك فيه رجلا غيره .» يضحك وهو يقول هذا. قلت له:

«لقد أخطأت بقولك: «تستدرجه إليه بعض النساء» والصحيح أن تقول: «يستدرج إليه بعض النساء.»

فقال الهربيد بكل ثقة، وهو يضع عينيه في عيني: «لم أخطئ يا صديقي.. فإن المرأة من هؤلاء الساقطات هي التي تستدرج صاحب المحل، فلا تخرج من عنده إلا بكومة ملابس تأخذها منه هدية بلا ثمن.. ترى (من يستدرج من) في هذه العملية؟» قلت له مقرا بجهلي:

«أنت تعرف سوقك أكثر.» وحاولت الخروج من تعابير اللغة، فقلت له:

«لقد أثار استغرابي خبر وكر البغاء المنصوب في الهواء الطلق وسط الشارع. ولكن كيف يتم ترتيب مثل هذا المكان الذي لا يخطر على بال أحد؟» فتوقف عن ضحكه وقال مكدر الوجه :«تصور أنهم قبضوا عليها متلبسة بالجريمة على أرضية البسطة المستورة من جميع الجهات بالملابس المعلقة على مشاجب، والمصممة علاقاتها على شكل مستطيل، وتحته حصيرة، ليشكل الموقع شبه تابوت مرتفع الواجهات، ينام فيه الساقطان..

ارتعبنا نحن أصحاب البسطات بين مشفق عليهما، وساخر، وبين مشمئز، ومحتد، وبين متعاطف معهما، وساخط عليهما، بينما كنا نرى الشرطة يسحبونها من تحت بسطته مثل سحب جثة من تحت الردم.. وعلى باب الهودج، وقبل أن يعتقلوهما، سمح لها الشرطي أن توازن لبس كلسونها الذي انحنت وشدته إنزالا ورفعا أمام الملأ، واقتادوها هي وذاك الشاب الأحول، ولم ينسوا اعتقال العرص أبو العش صاحب معرش البالة، بصفته يأوي محل دعارة ممنوعة في محل تجاري، بينما هو يصيح قائلا أن لا علاقة له في الموضوع، وأنه لم يشاهدهما يدخلان تحت الملابس.

كان العالم كله يتفرج ويعلق على حال الدنيا الذي تغير، وعلى هذا الفجور غيرالمتوقع، وهم يتساءلون، كيف صارالعهر يتم في الشارع العام.. قلت لأبو نجيب:

«ولكن المجرم لو كان يعقل، لقام بجريمته على مبدأ إذا بليتم فاستروا.. «فقال أبو نجيب بسخرية ضاحكة:

«هو استتر يا عمي، ولكن الهودج هو الذي لم يستر.. كل الحق على الهودج.. يجب أن يعطوا اسما جديدا لهذه المهنة الحقيرة، يسمونها: «نكاح الهودج!»

صحيح أنه عالم مجنون مجنون.»

الليلة التاسعة

عندما وصلني هذه الليلة، سألت الهربيد إلى أين ذهب ليلة أمس، بعد النداء الذي وصله من صاحب الفندق الرابض على حاجز الاستقبال، حيث لا توجد هواتف في غرف الفندق.. فقال الرجل إنه كان هاتفا من مستشفى الأشرافية، الذي أبلغه بتدهور صحة العجوز عارف أبو غليون، الذي يرقد بين الحياة والموت في جناح الرجال، والذي أبلغ أن لا أحد يعرفه سوى الهربيد، فاضطر للذهاب إلى هناك سريعا لتفقد أحوال العجوز، والعمل على خدمته، وإحضار حاجات مريض من هذا النوع، وأعطائه بعض النقود كمصروف طارئ، وذكرلي قصص أنات المرضى هناك، وصراخات عذاباتهم في عنبرطويل عريض، وأحداثا كثيرة حصلت في قاعة الرجال..

في الحقيقة، أكبرت موقفه الرجولي هذا، وازداد تعاطفي معه، واحترامي له.. وللخروج من آلامه المتراكمة، قلت له:

«لم تكمل لي قصتك مع الشيخ لهلوب صاحبك هذا يا محترم.. كيف استدرجك لتنفيذ طقوس الكي؟» فقال متفائلا:

كما قلت لك يا عزيزي؛ كثيرا ما يزورني الشيخ محسن لهلوب في بسطة بالتي، فأفاجأ فيه وهويسلم علي، ويتحدث معي بأسلوب ناعم ودود. وعندما شاهدني ذات يوم أتلوى من شدة الوجع، سألني عن سبب الألم، فشرحت له حالتي الصحية..

لم أكن أتوقع أنه يعالج مثل هذه الأوجاع، إذ قال لي أنه هو المختص بتلك الحالات، وذكر لي قصص حالات عديدة تم شفاؤها على يديه. وبدون أن أطلب ذلك منه، قال أنه سيبدأ معي ب»المعالجة الروحية»، فإذا لم أشف، فإن آخرالدواء هو الكي.. لم أفهم ما هي المعالجة الروحية التي.. لم يكن في مخيلتي غيرالأولياء الصالحين..

لا داعي لطول السيرة.. النتيجة أنني استسلمت لأمر الشيخ.. وبناء على تعليماته المشددة لنجاح العملية، أطعته، بصفته قد صار شيخي المعتمد. ولم لا أطيعه، فالغريق يتعلق لإنقاذ نفسه بقشة.

ولتحقيق مهمته، دعاني لزيارته في خلوته، ليريني الأشباح والأرواح في قبوه المعتم في آخربيوت جبل النصر. ونظرا لتجربتي

اليائسة في المستشفى، قلت لنفسي منقادا:

«لعل وعسى يا ولد أن يكون على يد هذا الشيخ شفاء.»

والله يا أبو الشباب، بعدما عم المساء، ركبت الباص وقلت: (وينك يا جبل النصر.). رحت أبحث عن» النصر» في نهاية طريق النصر، لعله يخرجني من عذابي..

في المحطة الأخيرة للباص، نزلت بصفتي آخر راكب، وسرت في طريق ترابية مدكوكة بخطين من حوافر السيارات التي تمر فتفاقع الأحجار بين عجلاتها.. ابتعدت عن جعير سيارة مخلعة تلحق بي، فتسبقني بدخانها الذي يخنق الهواء، وتقدمني باحثة عن موتها، لعلها نفس الطريق التي تقودني إلى المكان المقصود.

مشيت مشيت. صرت وحيدا في منطقة الفلا، حيث لا بيوت هنا.. لا أجد من أسأله عن بيت الشيخ، ولا من أتحدث معه سوى نفسي.. شاهدت بيتا في طرف منطقة متوحشة، متمردة على الحركة، وبعيدة عن العيون، وعلى المدى، نادرا ما تشاهد بيوتا هنا، تجدها متباعدة وفيها أضواء خافتة لا تعرف السهر.. كان آخرها بيت قديم يبدوأنه مهجور.. تماما كما وصفه لي.. كانت هناك كلاب تنبح من بعيد في الخلاء الموحش.. لم أتبينها، ولم أهتم لها، فأنا لا أخاف الكلاب أصلا حتى ولو كانت متوحشة، بصفتي ابن حياة الغنم.. ولكن واحدا منها كان يندفع نحوي بجرأة تفوق جرأة أولئك الخوافين.. فقعته حجر راع،

فجاء على رأسه، فطارينبح بصوت مبحوح وهو ينفض رأسه..
كان البيت حسب المواصفات التي ذكرها الشيخ.. على بابه شجرة سدر قصيرة متطاولة الأفرع، ومتشابكة متداخلة ببعضها بعضا، لا يستطيع قط ولا حتى فأر التسلل من بين أقدامها، التي تخللها نفايات تحتمي من العدم.
طرقت الباب ودخلت كما قال لي الشيخ، فوجدته معتما.. وبعد خطوات تحتاج لمزيد من جرأة اقتحام العتمة، تبينت أنه مأهول بأصوات وبأشباح تائهة ومتحركة هنا وهناك.
كنت أنتظر لقاءه بفارغ الصبر. وحسب الموعد، كانت الساعة الحادية عشرة ليلا، وفجأة ظهر أمامي الشيخ محسن لهلوب بدمه ولحمه، فاستقبلني بكل حفاوة وترحيب، ولكن بصوت هامس. كان هندامه غير مغسول وغير مكوي وشعره أشعث وغيرممشط كما تعودت على رؤيته في السوق..
يبدو أن الليل عالم مختلف. وأن لباس الليل ليس كما النهار. وبدون إطاله في الترحيب سار في العتمة أمامي بصمت، بينما تبعه ثلاثة من الدراويش؛ أحدهم إلى يميني، والآخر إلى يساري، والثالث خلفي، بينما الشيخ لهلوب يسير أمام موكبه العظيم بكل بساطة وتواضع.. تخيلته وكأنه سيفقعنا خطابا يقول فيه: «لقد وليت عليكم ولست بأفضل منكم.»
راحوا ينزلون معي درجات عدة في قبو معتم تحت الأرض،

وهم يحفون بي. أشار لي بيده أن أتبعهم.. ذهلت وأنا أحدق في عالم عجيب.. كانت القاعة شاحبة اللون، شبه معتمة، متسخة الجدران.. شاهدت جماعتهم يدورون في حلقة مغلقة، وهم يتبعون بعضهم بعضا، ويحوقلون في دورانهم خلف مساعد شيخ الطريقة الذي يقول لهم:

«من قال لا حول ولا قوة الا بالله مائة مرة في كل يوم، لم يصبه فقرأبدا..

من قال لا حول ولا قوة الا بالله مائة مرة في كل يوم، كانت له دواء من تسعة وتسعين داء، أيسرهم الهم..

كان يقول هذا وهم يسيرون خلفه ويقولون بأصوات دائخة:

«لا حول ولا قوة إلا بالله»

«لا حول ولا قوة إلا بالله»

«لا حول ولا قوة إلا بالله»

يرددونها طيلة الوقت .. وهكذا قادوني خلفهم، مع إشارة لي لأردد هذا القول، فرحت أدور مثلهم حول طست كبير، فيه جمر أحمر ينبلج من بين الرماد، ولا يلبث أحدهم أن يرش فيه ذريرات تفاقع، فيخرج منها دخان بخور يعبق الجو، ويصحي النائم، ويدوخ الصاحي، ويحول انتباهه إلى خيالات ضبابية، لا يكاد يفهم

منها شيئا، فتكاد تصطدم في ساحة العتمة بأجساد أشخاص يائسين فاغرين أفواههم، لا تعرف ما إذا كانوا رجالا أم نساء.. مترنحين أو مستسلمين لقضاء الله وقدره، وتجد غيرهم مبلمين، وكأنهم مومياوات مصرية في غيهب التحنيط.

كان عدد من الرجال الفحول من أصحاب الأثواب الشاحبة المعتقة يجلسون على الحصير وهم حالقي الرؤوس المنكسة، ومطيلي اللحى، بأشكال مختلفة، وكأنهم يتداولون قضية سرية، ونساء بأنوثة الصبايا، بملابس عربية خفيفة، يجلسن على بسط بالية مفروشة على الأرض، ويتحلقن حول وجاق نار يتصاعد منه دخان بخور ممزوج بروائح غريبة مدوخة، تصاعد متكاثفة لتصطدم بسقف القاعة الملتفة على جلوسها، فيعبق المكان بالخدر الممتع في صدور المحتفلين، ليجعل الجميع في حالة من اللايقين..

وكان دراويش يتجمعون ويتفرقون في قبو هناك، يلبسون أثوابا شبه بيضاء، معتمة قصيرة، تكسو وجوههم المحلوقة الشوارب لحى كثيفة طويلة، يشوب بياضها سوادٌ غيرمنتظم..

اقتربت من تجمعهم، سألت الشيخ محسن عما يفعلون.. فقال لي بصوت هامس:

«إنهم يفعلون الأعاجيب.. متاعب وجهود شاقة لإخراج الجن من البدن، وشفاء الأجساد التي لا يمكن شفاؤها، وجعل

النطفة تصبح علقة في رحم المرأة العاقر، وكثيرا ما يتم الكشف عن سرقات منهوبة.. وخيانات لا تغتفر.. وإعادة الذاكرة لرجال ونساء فقدوها منذ زمن، لنصل بعدها لرؤيا الجنة الموعودة في الفضاء البعيد.. أتبعها بقوله: «يا لطيف!»

****

لاحظت أن ترانيمهم قد اشتدت عند منتصف الليل، وهم يقفون صفا واحدا، يراقبون فيه تسوية مستوى أقدامهم الحافية، ويأخذون بتنغيم تواشيح طويلة، مع التمايل على بعضهم بعضا، ذات اليمين وذات اليسار، يناجون الأولياء الصالحين بأصواتهم المترددة، والتي يبدو أنها منقولة عن دراويش متصوفين قادرين، إذ سمعتهم يقولون:

"يا باهي الحسن يا من عشقه ديني.

أنعم بوصلك إن الوصل يحيني.

واعطف على رمقي فالحب سيرني

مضني ذليلا وكل الناس تبكيني.

قد ذاب قلبي وضاعت في الهوى حيلي.

ألا ترى ما جرى في الحب يكفيني.

أهيم في حبكم والقلب مشتعل

وأنت بالصد والهجران ترميني.»

فترد النساء على تواشيحهم بتواشيح أنثوية مقابلة؛

«صرفت فى حبكم عمرى وجسمى ناحل..
أبعد ذلى على الأبواب تبلينى..
هلا رأفت بمن ذابت حشاشته..
يا ليت كأس الود من ناحيك تحيني"..

ينشدون كل هذا ثم يتيامنون بتحريك صفهم جهة اليمين، فيدورون حول وجاق النار، ويكررون التواشيح الطويلة، بينما البخور يتكاثف في كل مكان، فيزيد من دوخان الحضور، لدرجة صار يصعب معها تميز الوجوه، وتعذر مشاهدة الأفعال التي لا يتبينها أحد، ويزداد الشعور المختلط بالاشعور، والوعي المختلط بالاوعي، وتشابك الأصوات بالأفعال، والدعوات بالابتهالات، والانفعالات بالافتعالات، والوضوح بالضبابية.

وعلى وقع ناي، ودقات طبل، تنبثق من حناجر خشنة في العتمة همهمات صوفية ذكورية مثيرة للشبق الجنسي، لا تعرف من أين يأتي مصدرها، يتردد صداها بهمهمات أنثوية متقابلة.

وفجأة يهب أحد دراويش الجوقة بثوبه القصير- وهو الأكثر طولا فيهم لدرجة تشعر وكأن رأسه سيصطدم بسقف المكان- مستلا قضيبا معدنيا رفيعا لامعا بلون الدخان، وبسمك الإبرة، وبدون إعطاء فرصة للتأمل أو التردد، فيطعن به خده الأيمن.. فيصيح الشيخ محسن لهلوب بصوت يجفل له الساهون عن ذكرالله، قائلا:

«يا لطيف.. !»

يشرئب الجمع لهذا المشهد العظيم، الذي لو شاهده الولدان لشابوا بلحظتهم وخروا ساجدين.. .يرعبني المشهد السريع الأداء، إذ أشاهد القضيب اللامع يخترقه منبلجا من خده الأيسر، وسط التهليل والتمجيد لله في العلا.. صلوا على الحبيب! فيقول الجمع معا: «اللهم صل على الحبيب محمد.» وبأصوات مجلجلة للحبيب محمد، يسحبه من هناك كما تسحب الشعرة من العجين، من دون أن تخرج من وجهه نقطة دم واحدة.. ثم يقوم صاحب ثوب قصير بقضيب آخر مشابه مسلول، قد يكون الرجل أقصرهم، فيضرب في جلد عنقه المتثني كتثنيات ستائر شباك، فتشاهد القضيب الإبرة يدخل من جلدة عنقه اليمنى، ليخرج من الجلدة اليسرى..

وهنا أسأل شيخي المحسن:

«ما هذا! هل يخترق القضيب اللامع حنجرته أو بلعومه، بحق وحقيق؟» هل تسيل دماء في الداخل، إذ لا أراها تنزف من رقبته؟ هل هي حقيقة، أم سحرمبين؟ لا يجيبني شيخي؛ إما لأنه مجذوب معهم، بتقديم الدعم والإسناد والتوجيه المعنوي لهذا الزخم المتدافع، أو أن لهذه

المهنة أسرارا لا يباح بها..

لم أنتبه كيف حصل ذلك الاختراق.. وبناء على كتم الشيخ محسن لهلوب إجابته، تبقى هذه الأسئلة تعشش في صدري باندهاش كبير.

وفي الجهة الأخرى يقوم درويش ثالث بأذن يسرى مقطوعة، ويبدو أن الواجهة اليسرى لوجهه كلها محروقة، أو مشوهة لأمرما، فيستل قضيبا أطول وأرفع، ويضربه في خاصرته اليمنى، فإذ به يبرز مادا رأسه المدبب المرعب براقا من الجهة اليسرى.. وهنا يصيح الشيخ محسن بصوت يقطع القلوب:

" يا خفي الألطاف" فيتردد صدى صوته في القاعة المضغوطة.

ينتظر الدرويش المتألق رهبا، وهو يتنفس الصعداء في هذه اللحظة العمياء وهو ينظر إلى مندهشيه يمينا ويسارا، ثم يسحب قضيبه وسط رعب الحضور المبتهلين، وهم يهللون فاتحين أفواههم على مصاريعها، بإعجاب وبانفعالات متباينة ممن يشاهدها لأول مرة، وحتى من المتعودين على مشاهدة هذه الملاعيب الساحرة التي لم أفهمها أبدا..

وقام رابع فحشرفي فمه زجاجة مصباح كهربائي، فكسرها بأسنانه، وهشمها، فمضغها ومضغهاومضغها، ثم ابتلعها، تماما كما يبتلع بيضة مسلوقة.. لا، لا.. لا يعقل ما أشاهده!

بعده قام خامس يا رجل، فمشى حافيا على جمر النار الملتهب، وهو يصيح ملعلعا مرتجفا بإنشاده: "بردا وسلاما وسلاما.. ألطف من نارالقيامة"، بينما بخور الجمر يتصاعد متنافثا في سماء القاعة، ثم عاد إلى مجلسه صامتا هادئا لامباليا، من دون أن تأثر قدماه بأية حروق.. يالطيف ما هذا.. ! يا إلهي، لم أصدق عيناي!

لم أنتبه إلى أن الفحول المتمايلين، والإناث المتمايلات أمامهم، والمتماهين كلهم مع نفثات الغباش الشاحب المسود، المتكاثف صعودا في سماء البخور النافث للدخان، يقتربون من بعضهم لدرجة التماهي، دون أن تميز مقدمات أجسادهم من مؤخراتها، ولا تدرك رؤوسهم من أرجلهم، فكان "تداخل الأجناس" في توهان شديد، وغموض ليس أشد منه غموض، وأصواتهم المتناغمة المترددة بأناشيد وأنات وتواشيح مدوخة مبكية ممتعة لذيذة، لا يفهم منها شيء.

وبعد دوخان شديد، تاهت فيه معالم المكان، استطعت تميز خيال امرأة ممددة على أرض غرفة مظلمة منزوية جهة اليسار، قيل إن الجن الأزرق يركبها، كانت تأوه وتصرخ وتشقلب بين دراويش ثلاثة من الأولياء الصالحين، فهمت أنهم يعالجونها بطرقهم المختلفة، تجدهم يسترون جسدها، وهم يتداورون عليها، يضربونها ضربات تهيم في حب الله.. يضربونها

ويضربونها، يا رجل، بينما هم يتهمهمون حولها، وأحدهم يصيح قائلا:
"اخرج يا ملعون!" ويقول آخر: "اطلع أيها النجس من هذه الطاهرة!" ويقول ثالث: "اسمع كلام الدراويش، كي تبقى وتعيش!"
وتوالى الضربات المباركة يا مبارك على الأنثى، بينما هي تألم وتلوى وتغنج وتصيح بأعلى صوتها، وتستغيث بالمتكالبين عليها، من شدة الألم، والدراويش يضغطون عليها من كل اتجاه في عتمة غير واضحة المعالم، ويقلبون جسدها من فوق لتحت، ومن تحت لفوق.. وعلى جنبها هذا وجنبها ذاك.. تجدهم يضغطون بأصابعهم الغليظة على جسدها المسكون بالأرواح، ابتداء من رأسها، ومرورا بعنقها وصدرها وبطنها وجانبي إليتها والجيب المختفي بينهما، ضغطا وتدليكا قويا لوركيها.. ويستمرون بالضرب غير المبرح.. وهي تأوه متجاوبة باستغاثة حنون، ولا يتورعون عن أن يشدوا بقوة على فخذيها، نزولا إلى ربلتي ساقيها، ثم قدميها، حيث يشتد العنف، بينما يشتد صراخ المرأة، ويشتد الضرب المستجاب، إلى أن ينشق الإصبع الكبيرلقدمها من شدة الألم، وينبلج جرحه، وتدفق منه دماء.. وعندها يصرخ الدراويش الثلاثة معا:
"اخرج يا ملعون!" ويقول فاعل رابع:

"انظروا.. انظروا.. الدماء تفجر زرقاء من رأس إصبع رجلها الكبير.. ها قد خرج الجن الأزرق من قدم الجسد الطاهر!" ويقول سابع: "يا له من شرير.. كان يلوث دماء الطاهرة!"

وبينما تسكن حركات المرأة وتهمد، فلا تصرخ ولا تئن بل تسترخي ممددة على الأرض، يقول تاسع:

"ها هي ترتاح الآن بعد هذا العذاب الطويل!" وبعدما يسحبونها إلى زاوية معتمة غير ظاهرة للعيان، يقول عاشر وهو يتثاءب:

"من المؤكد أنها ستحمل بعد هذا المخاض، وتثبت في بيتها، بعد أن كانت عاقرا، وزوجها يهددها بالطلاق!"

يتكاثف البخور أكثر وأكثر، ويتخدر الجلوس أكثر فأكثر، لدرجة أنهم لا يوقنون بما يحصل في هذا الجوالدخاني العجيب، فيفعلون أي شيء يريدون وهم لا يدركون ماذا يفعلون، منهمكين منتشين.

أتشبع بهذا الكرنفال العظيم، فأضع بتوجيه من أحدهم نقودا في كوة معطرة مخصصة لتشم رائحة بخورها المخص للتبريك، ولدفع البلاء عن الآثمين الخاطئين، ثم أستأذن بالخروج، فيقول لي الشيخ محسن لهلوب:

"الساعة الآن الواحدة صباحا، وأنت لا تملك سيارة.. انتظرقليلا حتى يخرج المريد أبو حميدان وجماعته، فيأخذونك

معهم إلى وسط البلد."

وبالفعل أنتظرهم حتى يخرجون، فأخرج معهم بتوصية من الشيخ، الذي يؤكد علي ونحن نخرج من باب البيت، بالقدوم كلما شعرت بألم الخاصرة.. ووعدني بترتيب أقصى ما يستطيع لتكون النتيجة خيرا.

نقف خارج البيت فأركب إلى جوار أبو حميدان، بينما تركب نساء ثلاث من مريدات "الطريقة اللهلوبية" في المقعد الخلفي، تجدهن يهدلن هديل الحمام الذي يتطاول متمردا بصوت يشبه هديل الحمام، وذلك بهمهمات ممزوجة بأمر الله، والصلاة السلام على رسول الله، وذلك طيلة الطريق الذي يخلو من السيارات المارة في شوارع قليلة الإضاءة.. تكاد هزهزات السيارة أن تخدر المشاهد التي لم أستطع التثبت من تخزينها في رأسي، وكأنني لم أعد أفهم أين أنا، ولا من أنا، ولا سبب ذهابي، أو سبب عودتي، أو حتى مكان عودتي، لولا عنوان وصولي الذي ذكره شيخي للسائق بدقة، فأوصلني إليه..

كل الذي عرفته أن السيارة وقفت لتنزلني عند فندقنا العتيد هذا، فنزلت منها وأنا أنظر إلى المقعد الخلفي العريض الذي كانت تماوج عليه النساء الثلاث، فلم أجد منهن واحدة.. كان المقعد خاليا تماما.لا أعرف ما إذا كانت السيارة قد ابتلعتهن، أم أنهن تبخرن مع دخان البخور الذي كان يعبق جو السيارة

المكفهر، أم أن أرواحهن بقيت تحوم في محتوى السيارة، ولم تغادرها، ولا أعرف كيف ابتعدت عن السيارة بدون وداع صاحبها.

ما صدقت وأنا أصعد درجات باب الفندق الإسمنتية المهترئة، متمايلا، إلى موقع حاجز مراقب الفندق الذي وجدته نائما على مكتب الاستقبال المتضائل في حجمه، فصحا ونظر إلي نظرات غريبة، لم أتكلم معه، بل صعدت متساندا على جدران الدرجات، متجها إلى الطابق الثاني، وبجهد جهيد، وتهالك شديد، وصلت إلى السطوح، وكأنني وصلت إلى قمة جبل الهملايا.. وهناك ارتميت على موقعي المحجوز لي..

بقيت نائما هكذا حتى صحوت ظهراليوم التالي والشمس الساطعة تكاد تشق رأسي.

الليلة العاشرة

في الليلة العاشرة والأخيرة، التي أقمتها في فندق الوادي، دخل علي الهربيد في حوالي العاشرة، وهو يثرثر كالعادة، وبعد السلام والكلام، راح يتحدث عن المظاهرات التي تكاد تسد الشوارع، فيقول:

«يبدو أن الأمور تفاقم في الشارع.. المعالم الفدائية التي كانت نادرة قبل أشهر، صارت اليوم تزداد دبيبا في الشوارع.. قد يكون زخم دفء معركة الكرامة وصل إلى عمان، خاصة بعد أن نجحت مقولة الجيش العربي المتكاتف مع الفدائين: «كل البنادق ضد إسرائيل.»

ونتيجة تكاتف المتلهفين معا لتحطيم معنويات العدو الغاشم، ورده على أعقابه مهزوما، في معركة قال الفدائيون

أنهم كانوا قد أعدوها معا، فكسروا شوكة العدوالذي كان يدعي أنه لا يقهر، ولكنها كانت فائقة النجاح، فتطورت ثقة الفدائين بأنفسهم، وبأن لهم توأما يقاتل إلى جوارهم كتفا لكتف، فتمددوا من الأغوارإلى باقي المدن، لدرجة صرنا نشاهد فدائين يمشون في شوارع عمان بأسلحتهم، جهارا نهارا.. «فقلت له:

«لقد شاهدتهم اليوم وأنا أسيرفي قاع البلد، عند الجامع الحسيني الكبير، وكان بعضهم يتوقف بأسلحته ويتحاور مع شخص أو مجموعة أصحاب من الجمهور الذي يحتشد أمام خطيب يلقي كلمته من شرفة الطابق الأول لمقهى الجامعة المسيطر على ناصية الشارع العام، بينما الجمهور الكبير يسد الشارع تحته مستمعا باندهاش لخطاب شديد النبرة، ومرتفع المطالب، التي لم يكن أحد من قبل يجرؤ على التفوه بها.

وبعد أن تبعه خطيبٌ آخرٌ، كان شابا جهوري الصوت، ومسلحا بحزامين من جديلتي رصاص، متصالبين من أعلى كتفيه إلى قاع بطنه، يستندان على حزام مطرز بالرصاص، ذا شعر كث طويل، مثل شعر جيفارا، تركتهم ومضيت.» فقال الهربيد: «ولماذا تركتهم ومضيت؟»

«لم أشعر أن موقع أسلحة الفدائي هو في داخل مدينة عمان، أو داخل غيرها من المدن.. كان المفروض أن يتم تنظيم الخلايا خارج المدن والقرى، وذلك في الخفاء، وإذا كان إلقاء

المحاضرات داخل المدن والقرى، وليس في مواقع الميدان المخفية، فليكن في قاعات مغلقة، على أن يتم بروية وسلاسة، وأن تكون إقامة الندوات بطريقة مدنية، غيرمسلحة، فليحضروا؛ خطباء ومستمعين، ولكن مع إبقاء أسلحتهم في خنادقهم، وفي تحركاتهم على حدود الأرض المحتلة.. »

«ولكن لا بد من شحن الشارع للمقاومة، وتسليح الناشط منهم. فكيف سيتم هذا بسلاسة؟ الشباب المهجرون عنوة من بلادهم متعطشون لحمل السلاح، تجدهم يعشقون اقتناء بندقية، ويعتبرونها أفضل من عشق صبية جميلة؟ قرأت اليوم قصيدة جديدة لنزارقباني عنوانها:

«أصبح عندي الآن بندقية» فقلت لرفيقي الشاب الذي كان يسير معي في الشارع، ويبدو أنه يعمل في تنظيم الشباب الراغبين في الانخراط في تنظيم فدائي، إنها أثارت مشاعري الوطنية. لم يقل لي اسمه، لأنه كان يلتقيني لأول مرة » وفورا أخرج الهربيد ورقة مطبوعة من جيبه وأخذ يقرأ لي بصوت واضح:

أصبح عندي الآن بندقيه..
أصبحت في قائمة الثوار
أفترش الأشواك والغبار
عشرون عاما.. وأنا
أبحث عن أرض وعن هويه

أبحث عن بيتي الذي هناك
عن وطني المحاط بالأسلاك
تقدموا.. تقدموا..
فقصة السلام مسرحيه..
والعدل مسرحيه..
إلى فلسطين طريقٌ واحدٌ
يمرمن فوهة بندقيه.. "

وعندما انتهى من قراءة القصيدة الطويلة، قلت له:

«كنت أتمنى أن أنزل مع الفدائين إلى الأغوار، إذ يبدو أنه يتم إنزال حافلات منهم يوميا.. وما دامت هناك تنظيمات كثيرة، ومتنافسة، فإن هناك تسابقا في العدد، وليس في نوعية أفراد كل تنظيم. كانوا متعطشين لفعل ثوري يعيدهم إلى بلادهم، ولهذا تجد أن بعضهم جاء ليفدي روحه للوطن، وبعضهم جاء ليقضي وقته، ويمارس العيش في الفوضى الشبابية، بدل كونه قاعدا بلا شغل ولا مشغلة، وقليل منهم مدسوس من قبل قوى غريبة، يبدو أنها دخلت الساحة لتخريب العمل الفدائي من الداخل، وبث الفتنة بطريقتها الخاصة بين الجيش والأمن من جهة، وبين منظمات العمل الفدائي من جهة أخرى. أعتقد أن تدفقهم الغزير بهذه الكمية لينخرطوا في فصائل مختلفة، وليسوا فصيلا واحدا، هو عمل غير مناسب، فلو اهتم قادتهم

بالإعداد والتدريب والانضباط أكثر من اهتمامهم بعدد أعضاء كل تنظيم، لكانت فعاليتهم في الساحة النضالية أكبر..

لاحظ كيف أن الجيش منضبط وموحد تحت إمرة قائد واحد، فعلى الفدائين كلهم أن يكونوا منضبطين وموحدين تحت إمرة قائد واحد، وأن تستمر توأمة الجيش والفدائين في تطوير العلاقات النضالية التي حققتها معركة الكرامة، بحيث يكون للجيش فعل الدعم والإسناد، ويكون للفدائين فعل المفاجأة، والتوغل خلف خطوط العدو، في ما يسمى»اضرب واهرب.»

وإذا كانت الدول والقوى المحيطة بالقضية الفلسطينية مختلفة الشؤون والشجون، وكل منها يعمل بطريقته الخاصة، إما للتحرير، وقد يكون بعضها يوظف مندسين للتخريب.. نحن لا نعرف، فإن الخراب سيكون مصيرالمقاومة مجتمعة.

لا شك أن هناك عناصر تخريبية مدسوسة تدفعهم لانحراف عن سكة الطريق.. خاصة بعد رعبهم من هذه التوأمة، ومن هذا التكاتف الفدائي العسكري.. ولكنني لا أعرف كيف سيجتمعون على قلب واحد، وضد عدو واحد، وهم مختلفون فيما بينهم؟

كل هذه الأفكار جعلتني أفكر بالعودة إلى جامعتي، مبتعدا عن هذا التنافر من أساسه، وذلك لاعتقادي أن الوطن واحد،

والمحتل واحد.» فقال الهربيد محزونا:

«وأما أنا الذي لا تأويه جامعة، ولا ينفق عليه أب ولا أم، والذي لا يجد نفسه في هذه العيشة البالية، في عالم البالة، فبصراحة، أتمنى لو يساعدني فصيل منهم للعودة إلى أرضي المحتلة بأية طريقة، وذلك في عملية مقاومة مدروسة. » «ولكن هل تعتقد أن الطريق سالك ليتم تسريبك عبر الحدود.. هل أنت متأكد من خبرة ومهارة المجموعة التي سترسلك أو ترافقك إلى الوطن؟ هل أنت متأكد من عدم ضياعك أو إضاعتك قبل الوصول إلى هدفك؟»

«لم أفهم قصدك بعبارة (ضياعك أوإضاعتك). فلوكانت هناك إضاعة، فكيف يسيرون العمليات الفدائية إلى هناك؟ ولكن دعني أجيبك بغبائي.. أن من يهب نفسه للوطن، لا يخشى الوسيلة، متشوقا للنتيجة، كما قال الشاعر الأندلسي لسان الدين الخطيب:

«من يركب البحرلا يخشى من الغرق.»

«كلنا نتمنى العودة إلى الوطن، وإن استعصت علينا العودة السلمية، فلنعد للتحرير يا هربيد، فلقد قال الرئيس جمال عبد الناصر: «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغيرالقوة». ولكن ركوب البحر يا عزيزي يجب أن يكون بسفينة متقنة الصنع، أو بقارب مضمون الوصول. » بصراحة؛ لم أكن أتخيل أن شريك

غرفتي متشوق لتلك الدرجة، لترك ساحة البالة، والعودة فدائيا إلى فلسطين..

وفي هذه الليلة الممزقة للأعصاب، لا أعرف ما هي التداعيات التي أدت إلى انفراط عقد الهربيد، فجعلته يتذكر أمه، التي كان قد ذكر سيرتها لي سابقا باختصار، وبدون رغبة مني للتدخل في شؤونه الداخلية، وبدون أسئلة مني كي لا يكشف أسراره، ولكنه هذه الليلة، بق الحصوة وحده، بشؤم لم يسبق له مثيل، وهويستعد للنوم، ويخور بحديث اعترافات مثل خوار ثور إسباني اخترقته سهام جبناء حلبة المصارعة، إذ قال أنه لم يشاهد أمه منذ هيامه في أرض الشتات، بعيدا عنها وعن بقايا أهله وأقاربه.. هذا إذا بقي له أقارب هناك.. حسبما نطق بهذيان غريب راح يتفلت من جنباته بدون انضباط:

«كانت أمي زينة امرأة جميلة، وكأن اسمها مكتوب على جسمها.. تقف من طولي، ولكن ببياض مضيء، لدرجة أنها كانت زهرية القوام.. عيناها زرقاوان بلون البحر، متوسطة امتلاء الجسد.. يبدو أنه من كثرة شرب الحليب وأكل الألبان والأجبان.. هي لا تسمن، نظرا لكثرة حركتها الدؤوب في خدمة الأغنام. كانت تولي أغنامها خدمة أكثر من إيلائها الوقت لخدمتنا، وتنتشي بشم رائحتها وكأنها نعجة تشم رائحة شبق الأكباش في موسم الإعشار. كانت تسير بين الأغنام وهي تأخذ شهيقا عميقا، فتملأ

صدرها برائحة هداد فحولها الزنخة في أول الربيع، وهي تقول لأبي:

«يبدوأنه جاء موسم هداد فحول الغنم يا عوض. عندما أشم رائحة عشار الغنم التي تبشرنا بجيل جديد من الخراف، أشم رائحة السعادة في الحياة.. » ترى هل كانت أمي زينة تحب رائحة أغنامها أكثرمن محبتنا؟ كنت أشعربهذا وهي تشم رائحة هداد الأغنام، وكأنها تنتشي بها.. لا بل تستلذ بها.»

ذكرني هذا الهربيد بما كنت قد قرأته؛ أنه إذا غضبت المرأة السيريلانكية من زوجها، فإنها تذهب وتستحم جيدا، كي تقهر زوجها، فلا يعود يستمتع برائحة عرقها ومرقها حين الجماع.. ومثل هذا يقول الهربيد المهزوم:

«هذا هو عالم البدو.. عالم الحلال.. الحلال عندنا هي الغنم، وليست السرقة أو الأمانة.. حتى لو كانت الأغنام نهبا من قطيع غريب، فهي تخضع لمسمى «حلال».. الحلال عندنا ليس له علاقة بالصدق أو الكذب، وليس بمفهوم الحلال والحرام عند الفلاحين وأهل المدينة.

كنت أجدها وأنا طفل تدور هكذا مثل مغزل الصوف.. تشبه في سيرها تطريزا من النوْر.. أتحس شعرها الحريري مستمتعا باللجوء لأمومتها، فأجده ناعم الملمس. كانت تمشطه وتجدله، وترك نهاية جديلتها محلولة، كما يقولون؛ «على حل

شعرها». تعجبني جديلتها المنتشرة حينا على خلفية رقبتها، والمنسدلة أحيانا على كتفيها، وهي تخفي نصفها تحت حطتها السوداء المطرزة بفنون البدو المزركشة، تاركة غرتها الفائرة ترفع رأسها، كزرع ريان يتيه بشبابه، بينما ينسدل امتدادها على ظهرها كشلال مجدول، ينساب من قمة جبل بهدوء وسكينة..

كنت أحب أمي كثيرا وأنا طفل صغير.. لم يكن لي في الدنيا غيرها.. هي السموات والأرض بالنسبة لي.. حتى عندما كنت أعود إليها بعد غياب طويل قادما مشتاقا من بيت لحم، كنت أحضنها عشقا وأتغزل بها.. أما وبعد الهجرة، فلم يعد حبي لها كما كان سابقا.. صرت أشعر أن حبها للحياة، للعمل، لذلك الزائر الغريب، كان يلهيها عني، وعن أختي نوفة»

ترى هل كانت أمي زينة تريد أن تحوصل، وتختفي عن الحياة بعد تهجيرالنكسة؟

هكذا أسموها لنا بكل بساطة.. «نكسة».. كانوا في كل مرة يصدرون لها شهادة ولادة جديدة.. مرة يسمونها «نكبة»، ومرة «نكسة».. ومرة «وكسة».. ومرة «فكسة.» تستطيع أن تقول إنه تاريخ من الهزائم المتلاحقة حققته بطولات العرب.. كل العرب.. لم يعترفوا في أية هزيمة مرة منوا بها أنها (احتلال فلسطين- كل فلسطين بالكامل يا جماعة!) والمصيبة أنه لم يطالب أحد بها بعد ذلك، حية أو ميتة.

هل كانت أمي زينة تدرك كل هذا التناسي، فتشغل نفسها بالعمل، وأبي يفعل مثلها، فيشغل نفسه بالرعي بأغنامه بعيدا عن الناس.. نسيان من أجل النسيان.. نسيان المصيبة التي أوقعنا بها الاحتلال الغربي الغاشم؟ نسيان الخزي والعارالذي نعيشه بعيدا عن وطننا المحتل من قبل غرباء «لا يرقبوا فيكم (إلا)2 ولا ذمة»

كان الهربيد يتحدث ساهما، وكأنه يفضفض عن مشاعره المضروبة.. شعرت أن المسكين يصف جماليات أمه المهزومة بالتهجير والشتات.. كان يتململ ويقوم ويقعد وهو يكلم الهواء الطائر، ساردا ذكريات مذهلة لوالدته، وكأنه يهذي بسكره ويقول:

«لا أعرف أين اختفيت يا أمي بعد غرق والدي.

كيف اختفيت..

مع من اختفيت.. هل ذهبت وحدك بمحض إرادتك، أم أن الصقر الجامح اختطف الزينة.. هل جمعك مع قطيع أغنامنا التائهة وأخذكما معا.هل بعت أغنامك قبل الهروب واشتريت بها ذهبا ليكون مصاغا لك، أم وهبتها كلها له، ما دام يملكك أنت وكل ما لك؟

لا، لا أعتقد أنك اشتريت الذهب بالحلال، ما دمت تحبين

2-قرآن كريم - إلا.. .تعني الإله الكنعاني (ال).

الحلال، مؤكد أنك أخذت حلالك معك.. ولكن أليس الحق علي أنا، إذ سرحت في بقاع الأرض صائعا ضائعا، وتركت الأغنام تبعثرفي أنحاء المعمورة؟

أوليس غرق أبي بذلك المشهد العظيم هو الذي قتلني، وأوقف قدرتي على التفكير والتدبير.. وهو الذي لم يبق في وجهي نظرا لأرى طريقي.. أو لأتبين ما هو الصحيح المطلوب عمله؟» يصمت ثم يتابع هذيانه قائلا:

«يسهل على المرأة أن تلتجيء إلى مكان آخر بعد وفاة زوجها.. ولكن الرجل يتعذب كثيرا حتى يجد له مأوى خارج بيته.. مجرد إشارة من المرأة، فإنها تجد من يأويها بالأحضان..

وأما الرجل فلا يجد له مأوى – هذا إذا وجد- غير مغارة العجوز عارف أبو غليون المعتمة.»

يتنهد لحظة، ثم يتابع معاتبتها الكارهة لكل شيء:

«كنت تضحكين، فيلمع سنك الذهبي الذي يزين أسنانك العلوية اليمنى.. .قلت يومها إن النور ركبوا لك سن الذهب هذا. كانت ضحكاتك تجلجل المكان في حضور أبي أو في غيابه، فإذا كان حاضرا تجدينه ينهرك، وأما إذا كان غائبا، فأنت تصهلين مثل مهرة منفلتة من لجامها. لم أكن أفهم لم كل هذا الفرح بحضور ذلك الأعرابي..

كنت بصراحة أغارعليك من ذلك الأعرابي عقلة المهيدب

الذي كان يزورنا قادما من الصحراء الشرقية، بصفته يعرف أبي، محضرا معه ملابس وحلويات شامية أو عراقية كثيرة، كان يجلس بيننا، فتصرين على أن تجلسيه في صدرالبيت.. أجدكما تحدثان وتضاحكان كثيرا.. خاصة أنت يا صاحبة السن الذهبي الضحوك.. وعندما ينهرك أبي لتخففي من حمْحمة صهيلك، كان المهيدب يقول لأبي:

«دعها تضحك يا رجل! لقد اختفت الضحكات هذه الأيام.. «ويضيف وكأنه يزاحم أبي في النظرإليها.. هذا يدافع عن ممتلكاته، وذاك يسطو عليها، وكأنه شديد الإعجاب بها(عينك عينك) فيقول: » الضحكة يا رجل صارت حسنة. »

كان الوقح يقول لأبي المسكين على باب الله:

«إذا كانت ابتسامتك في وجه أخيك صدقة، فكيف تكون الضحكات والقهقهات؟ إنها تدخلك الجنة من أوسع أبوابها. »

لم يكن أبي مهتما بالجنة حسبما شعرت، ولم يكن يصلي من أصله.. كان يرى أن عبادته لحرية المرعى هي جنته التي يراها بين أغنامه.. ولهذا عندما كادت إحدى أغنامه تغرق في تلك الواقعة، فداها بروحه، إذ دخل معترك القاع المائي اللدن، ليبعد عنها الغرق.. .» يتنهد عميقا ثم يضيف متأوها:

«يااااه.. لقد نجح في إغراق نفسه، ليبعد عنها الغرق.. هكذا كان يرى الجنة.. الذوبان في حب رعيته، مثل المتصوفين

الذين يتماهون في حب الله. وأما أمي!

كنت أشعر أن ذلك الأعرابي معجب بها من يومها.. وكثيرا ما قلت لنفسي: «والله لولا أنها أمي التي أثق بها، لقلت إنها؛ الخائنة تحبه وتهواه .» أعتقد أن أبي كان يدرك ما أرى.. ولكن ما باليد حيلة.. فهومضطرللسعي في الفلاة من أجل الرعي.. الأغنام لا تنتظر.. . تريد الكلأ.. والمرأة في هذه الميادين تخضع لحديث الرسول: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت.. » نعم. إذا شاءت المرأة فإنها تصنع ما تشاء، حتى لو كانت حولها قيود العالم كلها، وجبروت شهريار.. وهذه المشاعر جعلتني أتذكر مقولة امرئ القيس:

«وقطعت أحراسا إليها ومعشرا

علي حراصا لو يسرون مقتلي»

في غمرة هذه المرارات، انتفض الهربيد من جديد، خاصة وأن السهرة قد تعمقت، فوجدني أراقب تصرفاته خائفا عليه. فسألني: «هل أزعجك بهذياني هذا يا دكتور؟» قلت له:

«لست تهذي.. أنت تشت بالحديث عن أمك بكلام غير مفهوم.. ولكن ما الذي جعلك تذكر أمك، فتحدث عنها هذه الليلة بإسهاب، وأنت لم تذكرلي شيئا تفصيليا عنها قبل اليوم، كالذي تذكره الآن، وأنت تثرثرخارجا عن كل أطوارك المتمردة؟» فقال المخبول:

«انفجرت هذا المساء لأن امرأة صبية جاءتني بالصدفة من الديرة لتشتري أشياء لها من البالة، قالت إن اسمها لبيبة.. ولكنها صدمتني بحديثها الذي يشبه السهام الخارقة للقلب، قالت إنها عرفتني فاستغربت وقوفي بائعا في سوق البالة، فاقتربت مني للسلام والكلام وشراء ما تيسر من الملابس.. لا أعرف كيف عرفتني، رغم أنني لم أعرفها.. ولكن يبدو أن النساء ليس لهن شغل أو مشغلة سوى البحث عن مصادر معلومات تشحن لديهن هوايات القيل والقال، سواء كان عن هذا الشاب الذي جاء، أو عن تلك الفتاة التي ذهبت.. من الذي نصب، ومن الذي نهب، ومن التي حبلت، ومن الذي قتل، ومن الذي غادر البلاد.. ؟

عرفتني السيدة لبيبة يومها على أنها صاحبة البيت الثالث غرب بيتنا المستأجر هناك على طرف الديرة، لتكون لدينا إمكانية بناء بيت شعر وصيرة أغنام تفتح على الفلاة وأراضي الرعي شرقا.. ولا يخفى عليك أنني لم أكن أعرف سكان الحارة، إذ لم يمض على سكننا في ذلك البيت المستأجرأكثرمن سنة.. وبصفتي شابا علي العيون أينما أتجه، إما حبا بي، أواتقاء لاحتمال تطاولي على إحدى بنات الحارة.. قالت إنها كانت هناك تراقبني من بعيد، وأما هنا، على البسطة، فكانت تقف أمامي وتقرب وجهها من وجهي، لدرجة قد تصل إلى حد الالتصاق،

تجعلني أشم رائحة أنوثة جسدها المثيرة لكياني، فتشعرني أنها متلهفة لاحتضاني بشهية، ولو أنها لم تفعل ذلك خجلا.. وبعد مائة سؤال وجواب، وأحاديث كثيرة تطرقنا إليها، قالت المرأة الصبية:

«ذكر الأعرابي الذي اسمه عقلة المهيدب أنه جاء من شرق الأزرق، ليأخذ أمك زينة معه إلى بلده، لتعمل عنده، بصفتها خبيرة متمرسة في شؤون الأغنام، ولهذا تجاوبت أمك معه بمنتهى السهولة، وذهبت لتحلب وتجبن الحليب، وتصنع اللبن الرائب، وتكور جميد الغنم الكثير، عنده هناك في الصحراء..

وقالت الصبية إن جارتها أم الياس التقت البدوي، وحاولت أن تطمئن منه على حياة زينة أم الهربيد، فطمأنها، على أنها ستنام في بيت إحدى زوجاته، في الحفظ والصون، وإذا رغبت فستنام في غرفة خاصة لها، قريبة من صيرة الأغنام.. .وأضافت:

«وأما عن الأغنام، فنحن لم نسأل هل ضاعت الأغنام ولم يتبينها أحد؟ هل اشتراها البدوي منها؟ هل جلب الرجل الغنم وصاحبتها؟ الله أعلم.»

وبعد حديث عن أحوال الدنيا المليئة بالعذابات، قالت المرأة الصبية وهي تحس ما يعجبها من ملابس البالة هنا

وهناك:

«إن أمك التي جلست وحيدة من غير مصروف ولا زوج ولا أولاد ولا أغنام، قد ضاقت ذرعا بالحياة، فبعد أن اطمأنت على زواج ابنتها نوفة التي سافرت مع عريسها إلى ألمانيا، لم تطق أن تقعد وحيدة، بل حملت باقي أغراضها، وذهبت مع رجل الصحراء.»

أعرفه حق المعرفة، قلت للبيبة.. ولكنني لم أقل لها إنه كان يستعذب ضحكاتها، ويفرح بها، وقد يكون هذا هو سبب كون أبي يغارمن ضحكاتها.

ترى هل أغرق أبي نفسه في بقعة الماء سأما من هذه الحياة التي يرى فيها الغيروهو يمد يده على لحم بيته، وذلك بعد أن مد الأغيارأسلحتهم على وطنه المكبل بالقيود..

هل كان أبي يموت كل يوم غيرة على حلاله، وهو لا يعرف كيف يتصرف راعي الحلال في غيابه الإجباري عن بيته، حيث زوجته متفرغة لترويب حليب الحلال أو تجْبينه؟

لم أقل للمرأة الصبية لبيبة أن أمي الملعونة كانت راضية مستسلمة منزلقة لسبيها الجميل.. وأنها تريد أن تذهب فتحلب له، وتنعم برائحة الأغنام.

لم أقل لها إن أمي كانت تحب أن تأكل القشطة، وحليب اللباء، وكانت تضع طبقة من السكر على وجه الصحن، وتقول

إنه لذيذ وهو مختر، ثم تطعمنا أنا وأختي نوفة وجه الطبق، قبل أن ترش السكرعلى البقية الباقية في قعرالصحن فتبدأ تذوقه بنهم.

يتمدد الهربيد على سريره متهاويا وهو ينظر إلى فضاء الغرفة ويقول: «مؤكد أنك تضحكين كثيرا في هذه الليالي أيتها الخائنة، بدون أن يلجم أبي ضحكاتك الصاخبة، إذ انكسر الرمح.

ولكن لماذا هي خائنة؟

لا، لا، إنها ليست خائنة..

الزمن هو الخائن.. الزمن الذي غدر بنا هو نفسه الذي غدر بها، فكتفها من جميع الجهات، ورماها ليكون وجهها منكفئا على الأرض..

الزمن الذي هجرها من بلادها، وقتل زوجها بأبشع غرق في التاريخ، وأبعد عنها ابنها وابنتها هو الخائن.. .

ولدها الذي لم يستطع تدبيرأبيه وهو يغرق يغرق، إلى أن جن جنونه، وتاه في البراري حتى وصل إلى قاع هذا البلد القاسي الذي لا يرحم أحدا هو الخائن..

نعم أنا الخائن.. ! لا أزال أذكر يوم تشتت الأغنام بعد غرق أبي، وتبددت كل شاة في اتجاه.

لا أخفي على نفسي ذلك المشهد المذهل، الذي كنت أحدق فيه بعيني أبي، وبوجهه المعدم بالغرق، بينما أنا غيرقادر على مد يدي.

لم أستطع يومها أن أحدق في الشمس التي احرقت عيناي، فأغمضتهما كي لا أرى شيئا. يومها أدرت وجهي عن صعقة برق شديدة حطمت مشاعري، وشلت جسدي عن التصرف، فحولتني إلى شخص آخر، وحولت صورتي الواضحة الجلية إلى مسودة صورة محروقة، فزاغ مني البصر، وتاهت بوصلتي.. وما زلت تائها حتى الآن.. إلى أن يأتي يوم أجد فيه طريقي الذي أبحث عنه.

لم أعد أحس بالقيم، بالمعاني، بالعرف، بالعادات، لم آبه بانتشار أغنامنا المذعورة في الامكان، ومنذ يومها لم أعد أملك القدرة على توجيه مسيرتي.

لم أفهم ما إذا كنت أسيرعلى درب «لوط» الذي احترقت زوجته في خراب «سدوم وعمورة»، بسبب التفاتها إلى الوراء.. فرحت أنتشر في طريق لا أعرف اتجاهه، وتابعت سيري، إلى أن وصلت إلى هذا الوادي المكتظ بالناس.. .

نام الهربيد وهو يبوح بكلام لم يكن من الضرورة البوح به.

****

لم تأت الليلة الحادية عشرة، إذ بعد أن غادر الهربيد إلى عمله صباحا، وقبل الظهيرة جاء عمي الأصغر أبو جواد من الخليل، فالتقينا بالأحضان.. وبعد أحاديث طويلة عن أهلي وأقاربي، وأخبار مداهمات الاحتلال لبلادنا ومزارعنا وبيوتنا في أحيان كثيرة بحثا عن مقاومين، دعاني للغداء في مطعم القدس، المقابل لمقهى السنترال في قاع البلد، وعلى الغداء نقدني مصروفي السنوي في الجامعة، الذي أرسله أبي، إذ لم نكن نستسهل طريقة التحويلات البنكية، وبعدها ذهب معي إلى مكتب طيران زعترة، الواقع باتجاه المحكمة الرئيسة، حيث حجزنا لي تذكرة سفر في مساء ذلك اليوم إلى القاهرة، ثم عدنا إلى الفندق، فحزمت أمتعتي القليلة في حقيبة سفري، وخرجنا إلى زاوية الاستقبال، حيث نقدت صاحب الفندق رصيد مستحقاته علي..

كان الرجل متعاطفا معي وهو ينظر إلي بأسف على مغادرتي الفندق، وطلب مني زيارة فندقه حينما أعود إلى عمان..

وقفت لحظة أنظر إلى الوراء، لأودع أطلال الهربيد..

بصراحة عزت علي، وعزعلي فراق فارسها.
بعدها رافقني عمي إلى «مطارعمان المدني»في ماركا، حيث ودعني هناك بحرارة.. وغادر مطمئنا علي، واعدا أن يطمئن أبي وأهلي أنني واثق الخطوة في دراستي التي أعتبرها أولا.
وقفت وحدي أنتظر فتح بوابة دخول الطائرة، بينما كنت أفكرأن الهربيد كان يشعربمأساة وجوده، فأفشى لي هذه الأسرارعن عمد، لكي لا يبقى على هذه الحال، بل من المؤكد أنه سيعمل شيئا ما، يسترد به كرامته الوطنية، وتصحيح مسيرته الإنسانية.. ولكن، ما هو ذلك العمل.. .لست أدري.. .
طارت الطائرة فكان الجو الواعد بالنجاح الجامعي يلفني بشعور تعيس على هذا الاحتلال البغيض، وهذه الحياة التي فعلت فينا فعل تشظي الزجاج الذي لا يمكن إعادته كما هو، إلا بعد صهره وإعادة سبكه من جديد. انتهت رواية الليالي العشر

عملية فدائية مذهلة

كان خبرا مفاجئا لي. لم أتوقعه أبدا. إذ أعلن صوت العرب من القاهرة في أخبار الساعة الثامنة مساء أن مجموعة فدائية احتلت حافلة ركاب تابعة لشركة (إيجد) الإسرائيلية في مدينة العفولة، كانت متجهة إلى الناصرة، فمدينة حيفا، وصولا إلى القدس.

كنت متلهفا في الصباح لشراء جريدة الأهرام وأنا متجه إلى الكلية، فقرأت الخبر مفصلا، وكان موجزه أن المجموعة الفدائية، التي أطلقت على نفسها اسم؛ «برتقال يافا» مكونة من ثلاثة شباب وفتاة واحدة، وفور صعودهم إلى الحافلة، أعلنت الناطقة باسمهم أنهم مجموعة فدائية مسالمة، وأنهم لن يؤذوا أحدا من الركاب، وأن مطالبهم لا تعدى إفراج السلطات الإسرائيلية عن مائة أسير فلسطيني، مقابل إفراجهم عن ركاب

الحافلة الإسرائيلية، وذلك بإخراج المقاومين الفلسطينيين من السجون الإسرائيلية، وتسليمهم للصليب الأحمر الدولي، الذي هو مطالب باستقبالهم، والإعلان عن ضمان حمايتهم، وعودة كل منهم إلى بيته سالما محررا، وضرورة التزام الاحتلال الإسرائيلي بعدم إعادتهم إلى المعتقلات.

وذكر البيان أن ممثلي وكالات الأنباء، والصحفين تجمعوا قادمين من المناطق المحتلة، وكان مما نقلوه عن الناطقة الرسمية باسم المجموعة، واسمها خالدة حلبي، أن العملية تمت ردا على ما فعله المجندون الإسرائيليون بالمعتقلين الفلسطينيين في العنابر الكثيرة، بعد حرب الأيام الستة، إذ دخل ضابط إلى أحد العنابرذي المستودع الكبيرالذي يحشرون فيه، وبسماعته الجهورية سأل كل الأسرى المكدسين باكتظاظ لا يطاق، كحزمة عيدان كبريت في كل عنبر:

«من منكم يعتقد أنه رجل، وعنده كرامة؟» دهش المعتقلون لهذا التحدي الفظ لكرامتهم وإنسانيتهم، فوقف إثنان منهم وقال كل منهما بالتابع:

«أنا رجل، وعندي كرامة.» فأمرهما الضابط بالقدوم إلى المنصة التي يقف عليها بصفته زعيما، وعندما اقتربا وقفا أمامه، سحب مسدسه من جانبه، وبكل بساطة، أطلق النار على رأس الأول، ثم تلاه

بإطلاق النار على رأس الثاني، ثم نفخ في فوهة مسدسه، مثل تصرف رجال الكاوبوي الأمريكان في مثل هذه المواقع مع الهنود الحمر، فتهاوى الشهيدان أمام الأسرى، بينما خرج المجند من العنبر رافعا رأسه ومتباهيا ب»السلام» الذي حققه بكل براءة وهدوء..»

في صباح اليوم التالي، قرأت التقرير المنشور في الأهرام والذي يقول:

«كان أحد الأبطال الثلاثة قد أعلن أنه فدائي قادم من عمان، ليتخلص من التهجير الإسرائيلي القسري، وليقضي بقية عمره سواء كان دقيقة، أو يوما، أو العمر كله، على تراب وطنه فلسطين، إذ أنه واجه متاهة في الصحاري الشرقية دمرت حياته كلها، وليست عائلته فقط، ولهذا لم تبق أمامه وسيلة للحياة سوى العودة.. واجب العودة، وليس حق العودة.. وقال إن اسمه الهربيد عوض..

وقف شعر بدني.. ذهلت لهذا الاسم الذي بهر عيني... توقفت عن القراءة.. توقفت عن التفكير عندما قرأت اسم الهربيد عوض.. إذ كيف وأين ومتى تم ذلك يا هربيدي الحبيب؟ وأما عن سؤال (لماذا) فلن أسألك إياه أبدا، فقد يكون الطريق الذي شققته، هو الطريق الوحيد المعقول للتخلص من جنون حياتك المدمرة في الغربة.

لقد عرفت سبب اندفاعك إلى فلسطين..

لا زلت أذكرقراءتك لشعرنزارقباني

«إلى فلسطين خذوني معكم.. »

هل غامرت بذهابك إلى الجنة لذلك السبب؟ أم أن تحديقك في روح أبيك المتصاعدة أمامك في تلك البركة اللعينة، قد أعماك عن التمتع بمباهج الحياة على حافة الموت؟

هل قررت التوقف عن ممارسة الحياة، وأنت تعذب لشرود أمك من ذلك اليم الصحراوي البشع، لتبع لذة رائحة الحلال، والتي ربما تكون هربت من بشاعة الحياة المرعبة بتذكر زوجها وهو يغرق يغرق؟

هل كانت الوحدة التي تركتها الأم بلا ولد، ولا بنت، ولا زوج، ولا العيش بين أغنامها هي السبب؟

هل كانت غريزة حبك القديم لأمك، التي حولها الاحتلال إلى غريزة كراهية، هي الدافع لتحملك مشاق تلك المهمة المصيرية الصعبة مع الفدائين، أم هو الشوق للعودة إلى ربوع المحبوبة وظحا هو الذي شدك للعودة؟

لعلي أنا الرفيق الوحيد الذي يعرف قصتك الشخصية والعائلية والوطنية كلها..

لعلي أنا الوحيد القادر على تقديم تقرير صحفي مذهل عن تصرف هذا المناضل الذي كان يعيش على حافة الموت،

فقرر أن يهاجم الاستشهاد..

لو سألني رجال الصحافة، فسوف أقدم له تقريرا مذهلا عن هذا الهربيد العملاق، الذي يحاول بهذه العملية، التخلص من عارالعبودية الذي أوقعته الحياة فيه..

كنت سأقول لهم: «كيف تريدون من الفلسطيني أن يكون شخصا عاديا وهو يعيش الحياة على حافة الموت، وهو يواجه كل هذه العذابات التي ذكرتها أو لم أذكرها في هذه الرواية؟

كيف تريدونه أن يشعر بحنان الأم، وبحماية الأب، وبنوعية الألعاب الطفولية التي لم يرتكب براءة اللعب بها، وبطريقة سلوكه مع زملائه الأطفال الذين لم يرافقهم، فلم ليشعر بمتعة الحياة في الحضانة والروضة التي لم يدخل أسماءها الحسنى.... روضة الحنان.. روضة الطيور المرفرفة.. روضة المحبة.. روضة الجنة.. روضة فتافيت السكر.. روضة الأم الحنون.. روضة الطفل الذكى.. روضة البراعم.. روضة السنابل.. روضة البسمات.. روضة الشروق.. روضة الشقاوة.. روضة أول خطوة.. روضة طيور الجنة.. روضة الزهور الحمراء.. قطرات الندى.. .شعاع الأمل.. الغد الجديد.. العلم والايمان.. بنات وأولاد.. هيا نبدأ.. الغصن الأخضر.. بذور الغد.. العصفور الفصيح..

كيف يكون ذا شخصية سوية وهو لم يدخل عالم الطفل

من أصله، ولكنه نشأ وترعرع في «روضة الوحوش الكاسرة».. كيف تريد من المهجر الفلسطيني أن يعرف الكرم والجود والشهامة والشرف ما دام الذين أعلنوا أنهم رجال وشرفاء قد أعدموا علنا أمام الأشهاد.. !

ولكن ماذا سيحصل لي لو قدمت هذا التقرير؟ هل سيكافئونني، أم سيضعونني في معتقل سين وجيم؟

هل أنت شريك لهم في هذه المغامرة التي لا تعرف عقباها؟

- -هل أنت ابن شرموطة مثلهم؟

- -هل نخضعك للتعذيب، أبشع أنواع التعذيب، ونستمر بتعذيبك، تعذيب، تعذيب، تعذيب، حتى تعترف بكل ما لديك، وبكل ما ليس لديك، أنه لديك؟

«ليس لدي شيء أقوله يا جماعة.. .»

- -تقول: يا جماعة، أيها الكلب! قل يا سيدي. سوف أجعل الكلاب تقرقط المتبقي من عظام أهلك إذا لم تعترف.

«لا يا عمي.. لا يا أبي.. لا يا أمي .. لا يا إخوتي.. لا يا عرب.. لن أقدم تقريري الصحفي هذا، لأنهم سيدخلونني إلى أبشع السجون التي سأدخلها برجلي الشمال.. أنا ما لي ومال التقارير، ما دمت لست من أصحابها؟ لا يا عمي! سأواصل دراستي، كي أنجح وأتخرج طبيبا

قد الدنيا، وعندها أستطيع أن أخدم كل الموجوعين، ليس من بلدي فقط، وإنما حيثما كنت، فالأوجاع كثيرة، وأنا بصفتي المستقبلية طبيبا، أستطيع أن أعمل شيئا لصالح إنسانيتي المهدورة.
هنالك طرق كثيرة تؤدي إلى عكا وحيفا ويافا وغزة، وذلك كرديف لطريق المقاومة المباشرة.. منها طريق العلم، والأدب والفن. وطريق الزراعة والصناعة والتجارة.. ولكن السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو؛ هل ترك لنا المحتل أرضا بدون تدمير، لنزرعها، أو نقيم فوقها المصانع والمتاجر؟

****

لم أنم تلك الليلة إذ بقيت أعصابي المتوترة تابع أخبار العملية الفدائية التي هزت العالم.. ذلك العالم القلق على حمولة حافلة من ركاب إسرائيلين يقول لهم الفدائيون؛ إنهم مسالمون. وغير القلق على آلاف السجناء والقتلى الفلسطينيين بيد الاحتلال الإسرائيلي، وغير القلق على احتلال وطن بكامله، من دون اندهاش ولا إجراء وطني عربي، أو أممي.
أين هي «الأمم المتحدة ضدنا»، التي وظيفتها منع النزاع بين الفرقاء، وعدم سجن وتعذيب أصحاب المناطق

المحتلة؟

وحسبما نقلته نشرات الأخبار المتلاحقة، أن الحافلة سارت مرتجفة بأوامر الفدائين الذين كانوا مدججين بالقنابل، وبيد كل منهم رشاش عوزي غنمه من جهة إسرائيلية لم يعلن عن مصدرها.

وبالمقابل تجمع جيش من «شعب الله المختار»، وراح يلاحق الحافلة، ويحاصرها في طريقها من العفولة حتى خرجت من مدينة الناصرة.. لا نعرف كيف تعلقوا بالحافلة، وضخوا غازات مخدرة بداخلها، مما خدر الركاب والثوار، فتوقفت الحافلة على جانب الطريق، وتم إخلاء الرهائن، واعتقال الفدائين الأربعة.

في اليوم التالي أعلن متحدث باسم الجيش الإسرائيلي عن مقتل أحد الفدائين، الذين أطلق عليهم الناطق لقب «مخربين».. .

من هو الذي قتلوه، هل هو الهربيد..

بقيت مرعوبا بمصير صاحبي، حتى ذكرت إذاعة صوت العرب من القاهرة أن الشهيدة كان اسمها خالدة حلبي.. . يا ويلتي، سلام عليك يا حلب العروبة الشهباء.. ولكن كيف تم قتلها؟ هذا ما لم يعلن عنه.. وما دامت السيطرة على الحافلة قد تمت بالغاز

المخدر، فكيف تم قتل هذه المقاومة المعتقلة وهي مخدرة؟

هل قاومت اعتقالها؟ بالتأكيد لا.. فكيف تقاوم من كانت مخدرة؟ هل رفضت إعطاء معلومات عن تشكيل الخلية، وعمن دربهم، وعمن خطط للعملية؟

من أين حصل الفدائيون على سلاح العوزي؟ كيف تجمع مقاتل من مدينة جنين مع مقاتل من عمان، مع ثالث من مخيم صبرا اللبناني، مع مقاتلة سورية من حلب؟

هل دخلت الصبية المناضلة الأرض المحتلة من منطقة بحيرة طبريا؟ هل حاولوا اغتصابها فقاومت، فقتلوها بتوحش؟ هل رفضت الشهيدة الإدلاء بأية معلومة، فقتلوها تحت التعذيب؟ هل قتلوها بدم بارد، وهي مستسلمة داخل المعتقل؟ ربما بقي الهربيد ضمن المعتقلين تحت التعذيب، وربما تحت التحقيق النفسي، الذي قد يكون أكثر إفادة من التعذيب.

انتهت الأخبار حول خلية «برتقال يافا».. .لم يعد أحد يذكرها في نشرات الأخبار، وإن بقيت حديث مجالس

الفلسطينيين كلها، وغير منسية من الذاكرة الجمعية للعرب الشرفاء..

****

بعد سنوات سبع من اعتقال الهربيد ضمن عملية خلية «برتقال يافا» كنت قد تخرجت من كلية الطب، جامعة الأزهر، وعملت تحت التدريب في مستشفى الأشرافية في عمان.. .

وكعادتنا نحن الفلسطينيين الأردنيين لا نفعل شيئا سوى متابعة الأخبار، من أخبار إلى أخبار، وذلك لمعرفة موقعنا غير الثابت على سطح الكرة الأرضية، كانت فرحتي لا توصف عندما تم الإعلان عن الإفراج عن مائة معتقل فلسطيني ضمن عملية تبادل أسرى مع إسرائيلين اثنين كانت قد اعتقلتهما إحدى الجبهات الفلسطينية، وكان الهربيد من ضمن المحررين، إذ كانت النشرات تقول إنه قد تم إخلاء سبيل بعض السجناء الذين لم يقتلوا ولم تلطخ أياديهم بالدماء، حسب الخبرالإسرائيلي، وكأن أيدي المجندين الإسرائيلين ملطخة بالعطور وهم يقتلون كل من يتحرك يمنة أو يسرة وهو يسيرعلى الطريق.. .

طيب لماذا تسجنونهم أصلا، إذا كانت أيديهم غير ملطخة بالدماء؟

المهم في الخبرأن الهربيد صارحرا، وأنه قد تم الإفراج عنه بشرط بقائه في قطاع غزة، ومنعه من العودة إلى دياره وأهله؛ عشيرة الخيالة، المنتشرين في منطقة خربة مغارة النحل، غرب البحرالميت.

صرت أتابع الأخبار تلو الأخبار، لقراءة أو سماع أي تصريح يدلي به الهربيد عوض حول ظروف دخوله من الحدود الأردنية الفلسطينية التي يصعب على الطير الطائر اختراقها.. إلى أن وقعت على خبر مترجم عن صحيفة اللوموند الفرنسية في حوار مفصل مع الهربيد، الذي قال فيه، ردا على ذلك السؤال، أنه نزل مع رفاق له من عمان إلى الأغوار الشمالية، بين تل الأربعين والشونة الشمالية، حيث المنطقة قريبة من مخاضات في نهر الأردن، المسمى «الشريعة».. وهناك تم تدريبه هو ورفيق آخراسمه مغوار، فاخترقا أطواق النار المشتعلة، وتعلما كيف يصطادان الثعابين، ويبدآن بقطع رأسها على بعد سبعة سنتيمترات تقريبا، حتى لا يكون لحمها ملوثا بالسم، ثم يتم شق جسدها الطويل الرفيع بسكين، وذلك ليسهل سلخ جلدها الذي لا يختلف كثيرا عن خلع سترة إنسان، ثم تقطيعها إلى قطع صغيرة، وأكلها هكذا نيئة إذا تعذر شويها داخل مغارة عميقة لا ترى نيرانها من الخارج.

تدربا على أشياء كثيرة، إذ كان العدو يمهد طريقا عريضا مسهلا بمنتهى النعومة داخل أسلاكه الشائكة، وذلك ليعرف جنوده ما إذا كان أحد الفدائين أوحشدٌ منهم قد قطعوا الأسلاك الشائكة، ودخلوا خلسة إلى فلسطين، بحيث تظهرآثارأقدامهم على التربة الممهدة، فتم ملاحقتهم والقبض عليهم.

قال إنهم انتبهوا لهذه المسألة، وذلك بأن دخلوا ومعهم ماسحة عريضة صغيرة اليد، تشبه ماسحة زجاج السيارة، فكانوا يدوسون وهم يرجعون إلى الخلف، بهدف مسح كل ما هو أمامهم من خبطات الأقدام.. وهكذا لم يتركوا أي أثر يسمح بتبعهما داخل الأرض المحتلة.

ويواصل الهربيد تصريحه بأنه افترق عن رفيقه الذي اتجه نحو مخيم جنين في منطقة شمال فلسطين، ليزورمعارف له هناك، حسب التقرير، إذ أنه لا يسمح لأحد بسؤال الآخرعن تفاصيل طريقه.. يقول:

«وهكذا وصلت إلى بيت منزو عن قرية العفولة ذكروه لي، وهناك التقاني شاب من أهله بالأحضان.. وقبل أن تنتهي مهلة الأيام الثلاثة التي لا يسأل فيها الضيف عن سبب قدومه، كنت قد أكلت وشبعت وتحسنت صحتي بعد ذلك المشوار الطويل سيرا على الأقدام، مررت خلاله

بعيدا عن الشريط المحاذي لنهر الأردن، والمدجج بسيارات جيش المحتلين الإسرائيلين، وحفريات خنادقهم، فأكرمني الجماعة الذين لم يكونوا يعرفون أنني قادم في عملية فدائية، بل كانوا يعتقدون أنني قادم تهريبا للعودة إلى وطني وبيتي في شرق بيت لحم كما ذكرت لهم.

وهناك في العفولة كان تجمعنا، فركبنا الحافلة العمومية، وبعد انطلاقها، سحبنا أسلحتنا، وطالبنا بمطالبنا، معلنين أننا نلتزم بكوننا لن نعتدي على أحد، ما دمنا سنحصل على الإفراج عن سجنائنا السياسيين الفلسطينيين.

«تمت الرواية»